في البدء كانت الحُرِّية

شريف رزق

الكتاب : في البدء كانت الحُرّية

المؤلف : شريف رزق

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٤

رقم الإيداع : ٧٦١٨/ ٢٠١٤

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 187 - 1

الناشر

شمس للنشر والإعلام

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة

ت/فاكس: ٢٧٧٢٧٠٠٠٤ ٠٢(٢+) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥(٢+)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف : إسلام الشماع



في البدء كانت الحُرِّية

مقالات

شريف رزق

قدِّسوا الحُرِّية .. حتى لا يحكمكم طُغاة الأرض

جبران خليل جبران

الإهـــداء

إلى أمي : من علمتني ما هو الحب غير المشروط

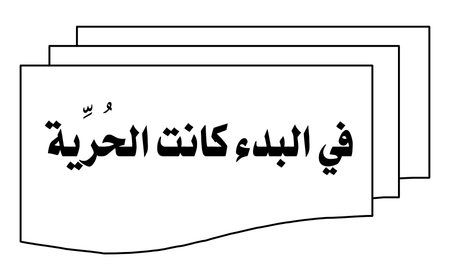
وإلى والدي : من أظهر لي ما هو العطاء بلا حدود

وإلى كل من يقدِّس الحرية

و كل من يصبو ويعمل لأجلها

أهدي هذا الكتاب

الفصل الأول



دائمًا ما نتساءل عن أهم ما في الحياة، والإجابات كثيرة ومتعددة، والتفسيرات تختلف من فردٍ لآخر، ومن مجتمعٍ لآخر، ومن زمنٍ لآخر، ومهما أُحاول أنْ أُفسر تلك الأشياء، فدائمًا ما أجد أنَّ الحُرِّية هي القيمة الأهم في تلك الحياة، الحُرِّية بمعناها الشامل غير المحدود، فالحُرِّية هي الحياة، دون الحُرِّية تصبح الحياة والموت متشابهين، وتتسم الحُرِّية باللامحدودية، وهنا تكمن إشكالية تدور حولها كثير من المشاحنات، وحتى الآن سوف نجد فكرة الحُرِّية مسار جدل في كل مكان، ولا نستطيع أنْ نتوقع أنْ تقلَّ حدة الحوار والجدل حول فكرة الحُرِّية.

إنَّ فكرة اللامحدودية هي أصل فكرة الحُرِّية، فلا توجد حرية حين تُكبل بالقيود، ومهما حاول الكثيرون تقييد الحُرِّية فلن يفلحوا، والحُرِّية ليستْ بالسهولة التي قد يتخيلها البعض، قد تحيا في مجتمعٍ ديمقراطي، وأنتَ مفتقد للحرية كفردٍ، وقد تستمتع بالحُرِّية كفردٍ، وأنتَ في مجتمعٍ ديكتاتوري، ومع ذلك فإنَّ المجتمعات التي تتوفر بها الحريات الفردية، تظل مجتمعات إنمائية وقوية ومدعِمة للفرد في كل مكانٍ.

أسئلة كثيرة تطرحها فكرة الحُرِّية، والإجابات نفسها تطرح أسئلة جديدة، ووجود أسئلة هو أحد أشكال النمو المستمر للمجتمعات، فوجود إجابات محددة سلفًا ينتفي معها وجود حقيقي للحرية، فالحياة بالأساس حالة من التساؤل المستمر المؤدي بالضرورة للحراك الواجب حدوثه في المجتمعات.

إنَّ القيام بأي نشاطٍ حياتي، يستلزم معه وجود حرية مُطلقة حتى يتم بنجاح وموضوعية، إذا أردتَ مثلًا أنْ تبحث في أي حقيقة تاريخية، فعليكَ التسلُّح بعددٍ من الحريات:

أولًا: حرية البحث، وهذا حق أصيل لكل البشر، وأحد الأركان الأساسية للمعرفة الحقيقية، وليس هذا في حد ذاته هو الأهم، وإنما التحرر من كل الأفكار المسبقة والأنماط الجاهزة، وهذا هو العامل الأساسي في نجاح البحث التاريخي، فعند قيام باحث تُركي بالبحث في مذابح الإبادة العِرقية للأرمن لعددٍ يتراوح بين مليون إلى مليون ونصف أرمني، فهذا الباحث عليه التجرُّد والتحرر تمامًا من كل المشاعر الوطنية حتى يتعامل مع تلك الأحداث التاريخية بحيادٍ تام، فالبحث الموضوعي يتطلب الحياد التام، والحياد يتطلب الحُرِّية المطلقة.

ثانيًا: حرية الاعتقاد، والاختيار، والسفر، والزواج، والشراء، والامتلاك، ولو تعاملنا مع الفكرة بجدية سوف ندرك مدى توغلها، وتداخلها في كافة مناحي الحياة.

وهنا أجد أنَّ علي القول بأنَّ الحُرِّية هي الحياة، فنحن نحيا بفخرٍ حين نشعر أننا مسئولون تمامًا عن اختياراتنا في الحياة، ونشعر بانتماءٍ لذواتنا حين يكون مصيرنا بأيدينا، فالإحساس بالحُرِّية هو المُحرِّك الأساسي للنشاط الإنساني.

(١)

الحُرِّية والإبداع ١

لا يوجد إبداع بدون حرية، وحين نستخدم كلمة الحُرِّية فالمعنى هنا مطلق، والإبداع هو المُحرِّك الرئيسي لشريان الحياة، ففي كافة مجالات الحياة ترتبط الحُرِّية ارتباطًا تلازميًا حتميًا بالإبداع.

حين تُبدع، تنطلق من داخلكَ طاقات كثيرة، وفي تلك الحياة تتآمر أشياء كثيرة كي تُحاصر إبداعكَ، مَنْ يختلف عنكَ يحاول دومًا أنْ يجعلكَ مثله لا لشيءٍ سوى لأنه يستشعر الأمان حين يتشابه معه الآخرون، حين تحب وتقتنع تمامًا، فلن يستطيع أحد أنْ يقترب من حدودكَ، وتلك الحدود هي الحُرِّية، وتلك الحدود بلا حدود، أنتَ تضعها ولا يراها غيركَ.

فالمبدع يتألق عند ازدهار الحريات، الإبداع يتطلب ازدهار كل أنواع الحريات.

فقد توصل جاليليو إلى الكثير من المكتشفات؛ لأنه لم يكن مقيد بأيَّة أفكارٍ مسبقة، ولأنه كان واضحًا وعالمًا بأنَّ الكتاب المقدس، لم يكن ولن يكون في أي وقتٍ من الأوقات كتاب علومٍ أو تاريخٍ، وحدث ذلك في وقتٍ كانت الكنيسة بأوروبا تتحكم في معظم الأشياء الحياتية، فقد اتهمتْ الكنيسة جاليليو بالهرطقة، والخروج عن أفكار الكتاب المقدس، وذلك عندما دعم أفكار كوبر نيقوس التي تدور

حول أنَّ الشمس هي مركز الكون، وليستْ الأرض، كما زعمتْ الكنيسة في ذاك الوقت أنَّ هذا ما يقوله الكتاب المقدس.

هنا تصبح القضية أكثر تعقيدًا، تفسير الكتب الدينية تفسيرًا حرفيًا بمعزلٍ عن الواقع الحياتي المُعاش، يجعل الحياة منعزلة عن الفكر الديني، فالفكر الديني يجب أنْ يعطي رؤية حياتية، أما التفاصيل الحياتية فيجب أنْ تُترك لكل مجتمعٍ مع المنطق الذي يتفق مع تلك النظرية.

إذ يجب أنْ يسود الفكر المنطقي في تفسير النشاطات الحياتية اليومية، وما يتعارض مع المنطق يجب إعادة فحصه حتى يتسنى الأخذ بالمرجعية المنطقية.

الفكر الديني بالأساس، هو محاولة لتغيير الإنسان نحو الأفضل، لا أعتقد أنَّ غياب المنطق قد يضيف أي شكلٍ إيجابي لحياة الإنسان.

العلم أساسًا يقوم على الملاحظة والتجريب ثم التغيير، فالثبات فكرة لا تنتمي للحياة أو العلم، والعلماء في حالة بحثٍ دائم، فدائمًا توجد أسئلة جديدة، والإجابات تطرح أسئلة أخرى.

وحتى يُبدع العلماء لابد من التحرر من المادي والفكري، فليس من المنطق أنْ يكون المفكر، العالم، رجل الدين في حالة احتياجٍ مادي، ثم تطلب منه التكريس التام للعمل أو الخدمة الدينية، كما أنه ليس من المنطق بأي حالٍ من الأحوال أنْ يشترك رجل الدين ـ المفترض أنه منقطع للبحث العلمي ـ في أي عملٍ تجاري، أو أنْ

يعمل لدى الحكومة، فهذا يقتنص الكثير من تلك الحُرِّية المطلقة التي يجب أنْ يتمتع بها دائمًا.

حين يخلط الفنان بين الربح المادي والفن المطلق، يقل الإبداع ويقل توهجه، فالفنان الحقيقي يُكرِّس حياته لفنه؛ لأنه هو والفن يصبحا شيئًا واحدًا.

حين رأيتُ الفنانة الكبيرة أمينة رزق على مسرح الهناجر في عام ٢٠٠٢م، تمثّل في مسرحية اللَّيلة الثانية بعد الألف للكاتب عبدالله الطوخي، وكانت جالسة وهي تمثّل طوال المسرحية، وكانت قد بلغتْ الرابعة والتسعين من العمر، فلن نستطيع أنْ نجد سببًا آخر غير العشق الشديد للفن، فالتمثيل بالهناجر عمومًا لا يُدر مالًا كثيرًا، ولكنه ذلك العشق الذي يجعل الحياة حياة، ويجعل أمينة رزق تقاوم آلام المرض، وتتحدى الزمن، وتُبدع، فقد وجدتْ الحياة في إبداعها، وتوحدتْ مع فنها، فأصبح الفن هو الطاقة والقوة الدافعة خلف النشاط الحياتي الذي قامتْ به.

فلحظات الإبداع للمبدع هي لحظات نشوى وذوبان، وقد ينسى الزمان والمكان، ويتوحد مع الفن في حالة إخلاصٍ يتسم بالنقاء، لذا فالحُرِّية المطلقة هي ملاذ كل فنان.

(٢)

الحُرِّية والإبداع ٢

- **التأمل في السائد:**

الإبداع هو بالأساس عملية خلق، والخلق هو أساسًا رحلة من التحدي لكل ما هو سائد، والسائد دائمًا ما يكتسب هالة قدسية بلا أسبابٍ واضحة سوى أنه سائد، وما إنْ تبدأ بتحليل ذلك حتى تفاجأ بأنَّ الكثير منه لا يقترب من المنطق بأي حالٍ من الأحوال، وبداية الإبداع هي التحرر من خرافة قدسية السائد، لنقترب أكثر من الواقع؛ لنرى أمثلة أكثر وضوحًا، وهذا سائد في وسائل الإعلام حين نتحدث مثلًا في الرياضة، لو أنَّ فريق السعودية يلعب مباراة كرة قدم ضد فريق الكاميرون، فسنجد المعلّق الرياضي، يطالبنا أنْ نشجِّع فريق السعودية، وذلك لأنهم عرب ونحن عرب، كما لو أنَّ هذا سبب كافٍ!.

إنَّ استخدام القدرة الإبداعية هنا لتحليل ذلك الموقف والتأمل فيه، يجعلنا ندرك مدى عنصرية هذه الفكرة التي يرددها المعلّق، وليس بالضرورة أنْ يكون ذلك المعلّق مدركًا مدى عنصرية الفكر الذي يطرحه، ولكنه يطرحه على أيَّة حال.

وإذا تابعتَ الموقف الرياضي أكثر، ستجد أنَّ نفس المعلّق يطالبكَ بتشجيع فريق الكاميرون حين يلعب ضد فريق إيطاليا، وذلك لأننا أفارقة مثلهم، أما حين يلعب فريق إيطاليا ضد فريق تركيا فسينادي

نفس المذيع بتشجيع تركيا؛ لأنهم مسلمون، وتتغير تلك القصة العبثية حسب الميول والتوجهات، ليس فقط في المحيط العربي بل وفي المجتمع الغربي أيضًا، لكنْ بأشكالٍ أخرى، ولحظة من التأمل في تلك الأشياء وتلك التوجهات، نجد أنَّ كثيرًا من المفاهيم السائدة لا تتفق مع مبادئ حقوق الإنسان، ونجد أنَّ التقسيمات العِرقية الدينية والمادية، ما هي إلَّا تحريف للطبيعة الأصيلة للإنسان الذي يسعى أساسًا نحو الحبِّ المطلق، وحين يمتلئ القلب بالحبِّ المطلق، تنتفي أفكار الاختلاف القائم على العِرق الديني أو الجنسي، فالنظرة الأكثر شمولية للكون تتراجع معها التجمعات المبنية على العِرق والدين، لنتأمل أكثر بهجة الحياة القائمة على الحبِّ المطلق.

حين تسافر حول العالم سوف تندهش كثيرًا، ولكنكَ أيضًا تتعلَّم كثيرًا عن الآخرين، سوف ترى مدى التنوع في الحياة في كل شيءٍ، أساليب الحياة، الموسيقى، عادات الزواج، الملبس، المأكل والمشرب، ومن ثمَّ تدرك بما لا يدع مجالًا للشك أنَّ التنوع والاختلاف هما أساس الحياة، وما تراه أنتَ حقٌّ مطلق هو فقط كذلك بالنسبة لكَ أنتَ، أما الآخرون فلهم معطيات أخرى، وإدراك ذلك هو أمر عظيم في حد ذاته، فتصبح أكثر تقبلًا لفكرة وجود الآخر، ولن يزعجكَ أنْ ترى اختلاف الآخرين، إذ يصبح ذلك أحد مكونات الحياة، فمنطق الأشياء، ومنطق الحياة هو الاختلاف، ومن ثمَّ تصبح أكثر قدرة على رؤية ذاتكَ أفضل، إذ أنكَ حينئذ تستطيع تغيير أو تعديل أو إبقاء حالكَ كما هو، وتلك هي بهجة الحياة.

الحياة هي السير للأمام والتعثُّر، وأحيانًا يكون السقوط جزءًا أساسيًا من الغوص في أعماق الحياة.

(٣)

الحُرِّية والمعتقدات

ما يعتقد الإنسان هو حق أصيل لكل فردٍ في هذا العالم، فمنذ القِدَمِ والناس تتوارث ما يعتقده الأهل، وكلما ضاقتْ مساحة الحُرِّية كلما قلَّ التفكير في هذا الاعتقاد، أو تحليله تحليلًا موضوعيًا، أو حتى التفكير في ملائمة ذلك لطريقة الحياة التي يسلكها الفرد، فيصبح دائمًا الخروج عمَّا تعتقده الجماعة دربًا من الجنون، والجموح الذي قد يؤدي إلى نبذ ذلك الفرد، وقد يصل الأمر في بعض المجتمعات إلى إهدار الدم.

والسؤال المحير الآن هو.. لماذا ينزعج أو ينفعل أو يغضب؟ ومن ثمَّ قد يستخدم العنف، أو حتى القتل لشخصٍ ما حين يختلف آخر معه، كان سابقًا له نفس المعتقد، ويدعي ذلك الغاضب من الاختلاف أنه يريد مصلحة الشخص الآخر، وهنا تبرُّز قضية الحُرِّية، وهي دائمًا الحل الأمثل في اعتقادي لمثل هذا الادعاء، فكل شخصٍ حر فيما يعتقد مهما اختلف مع الآخرين، المربك في تلك الحكاية، هو انزعاج بل وغضب الآخرين، فمن الواضح أنَّ هذا الاختلاف يخيف البعض، إذ يروا فيه تهديدًا للسلطة التي يتمتعون بها، فأول المتضررين من هذا الاختلاف هم بعض رجال الدين؛ وذلك لأنهم يرون في ذلك تهديدًا لسلطاتهم.

والادعاءات الأخرى كثيرة، مثل: معرفة مصلحتكَ أكثر منكَ، وذلك على أساس أنكَ ستظل طفلًا مدى الحياة طالما بقوا هم كبارًا، ولن تعرف أبدًا متى ستكبر؛ لأنه ليس بالإمكان أنْ تصبح أنتَ وهم كبارًا في نفس الوقت، والادعاء الأكثر غرابة، هو أنهم يمتلكون الحقيقة المطلقة، وذلك في حد ذاته هدم لفكرة البحث والتساؤل، فما يعتبر مطلقًا، أو من الثوابت لدى البعض ليس بالضرورة كذلك لدى الآخرين، ومن زمنٍ لآخر أيضًا.

تصوَّر مثلًا وضع المرأة قبل مائة عام في مصر، وقبل مائتي عام في أوروبا، وأيضًا فكّر في كثير من المعايير الأخلاقية على مستوى العالم على مدار التاريخ، تجد أنَّ النسبية والتغيير هما الأكثر حدوثًا وتأثيرًا.

هنا يَبرز تساؤل منطقي.. ما هو الحق المطلق إذًا؟

الحقيقة التي لا تناقش!

المطلق هو مطلق فقط في الوقت الآني لشخصٍ ما، في مكانٍ ما، في ظرفٍ ما، ولا ينسحب المطلق لفردٍ ما، أو مجموعةٍ ما على باقي الأفراد أو المجتمع، وقد يظل ذلك المطلق مطلقًا لهذا الشخص مدى الحياة، أو قد يتغيَّر إذا تغيَّر الشخص، واحتمالية تغيُّر الشخص تعتمد بدرجة كبيرة على مدى الحُرِّية المتاحة في المجتمع الذي يعيش فيه، ومدى التعرُّض لخبرات متعددة.

فكلما زادتْ مساحة الحُرِّية في مجتمعٍ ما، كلما زاد صدق الأفراد في التعبير عمَّا يعتقدون فيه، وكلما زاد القهر المطلق، كلما زاد

النفاق والرياء. إذ كيف تطلُب من شخصٍ أنْ يتبع طريقًا واحدًا في الحياة، وإنْ لم يتبعه فعليه تحمُّل عواقب ذلك، مثلما كان يحدث في أوروبا في العصور الوسطى، ويحدث الآن في بعض بلدان العالم.

فمثلًا قيام الهيئة الدينية في إيران بتحديد شكل تسريحة شعر الرجال، ومَنْ يخالف ذلك يعاقب، وهذا العبث بالحُرِّية الذي يجعل الإنسان غير قادرٍ على اختيار شكل تسريحة الشعر التي يرتاح لها، إذ يجد هيئة دينية تحدد له ذلك.. أليس هذا هو العبث ذاته؟! وقيام بعض الجماعات الدينية في أماكن مختلفة من العالم، وعلى وجه الخصوص المملكة العربية السعودية بضرب مَنْ تجده في أي مكان أثناء مواقيت الصلاة، أليس هذا أيضًا عبثًا بالحُرِّية الشخصية؟! وهل يقبل الله صلاة من شخصٍ هو مجبور عليها؟ أليس من القهر أنْ تُجبر المرأة في السعودية على عدم قيادة السيارة؟ ثم يعفو جلالة الملك عن إحدى السيدات حين قُبِضَ عليها متلبسة بقيادة السيارة!.

في أيَّة دولة في هذا العالم، في هذا القرن، يقبض على إنسان؛ لأنه يقود أو تقود سيارة، ويعفو عنها الملك! لا يبدو لي أنه توجد جريمة كي يتم العفو عنها، أيضًا مُنِعَ بيع المشروبات الروحية؛ لأنها محرمة دينيًا، هو عبث بالحُرِّية الدينية والشخصية، فدينيًا المعيار الحقيقي هو وجود الشيء، ثم قراركَ الشخصي أنْ لا تمسسه رغم أنه متاح، وتلك هي الحُرِّية التي تفسح الطريق لمعرفة حقيقية، والقرار النابع من القلب هو قرار حياة، أما المجبر على فعل الشيء، فهو في حالة موتٍ محقق.

(٤)

الحُرِّية والهوية

- **ما هي الهوية؟**

دائمًا ما يُطرح هذا السؤال على عدة أصعدة، الهوية هي الشخص ذاته بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فهي الشخص بكل كيانه، التربية، الأهل، التعليم، الدين، وسائل الإعلام، التوجهات، والسلوك، وغير ذلك الكثير.

أما السؤال الثاني فهو.. هل تُحدَّد الهوية سلفًا من الآخرين أم أنَّ للشخص مطلق الحُرِّية في أنْ يُحدِّد هويته دون قيود؟!.

والإجابة: هي وجود ارتباط وثيق بين الهوية والحُرِّية، فبدون الحُرِّية تتكون هوية مشوهة حيث إنها تكوَّنتْ بناءً على قناعات الآخرين من ناحية، والضغوط المجتمعية والصور النمطية من ناحية أخرى.

فنحن نسلُك بطريقةٍ ما نتيجة التعوُّد على سلوكٍ ما، ثم يُدعَّم هذا السلوك بقبول الآخرين له، وهؤلاء الآخرين غالبًا ما يكونون القوة المؤثرة في ذاك المجتمع المعني، وهذا لا يعني بالضرورة أنَّ ذاك السلوك إيجابي أو سلبي، ولكنه يعني أنه السلوك المقبول، فقبول سلوكٍ ما، في مجتمعٍ ما، في وقتٍ ما، يظل دائمًا وأبدًا أمرًا نسبيًا.

وبناءً على هذا نجد الكثير من السلوكيات المقبولة، أو غير المقبولة في كل المجتمعات، طريقة تناول الحساء في المملكة المتحدة وفي كوريا مثلًا، ففي المملكة المتحدة من غير المقبول بأي حالٍ من الأحوال أنْ يصدُّر عنكَ صوتًا خلال تناول الحساء، والعكس مقبول تمامًا في كوريا، في هذه الحالة تتوقف الإجابة عن سؤالٍ.. ما هو السلوك المحبب، والأكثر قبولًا اجتماعيًا على ثقافتكَ أنتَ، ومدى قربه أو بعده عن إحدى الثقافتين، وليس بالضرورة عن السلوك في حد ذاته؟.

ومن هنا نطرح السؤال التالي عن الحُرِّية ودورها في نقد وتغيير السلوك، فقبول كل أشكال السلوك كما هي دون فحصٍ، وتمحيصٍ غالبًا ما يؤدي إلى التمسُّك ببعض السلوكيات والاتجاهات شديدة السلبية.

وهذا لا يعني تفضيل سلوكٍ عن سلوكٍ آخر، لكنَّ ذلك يعني أنَّ على كل شخصٍ مراجعة كافة السلوكيات التي يقوم بها، وتتم هذه المراجعة في إطار الوعي بالمنطق، وليس ما تمَّ استلامه من الأجداد، وهذا الأمر ليس باليسير، ولكنه يتطلب جهودًا مضنية، وصراعًا مع القوى المحافظة، إذ أنَّ تلك القوى المحافظة غالبًا ما تحاول أنْ تحافظ على معظم الأشياء دون تغيير.

وهنا تكمن قيمة وصلابة فكرة الحُرِّية، إذ أنَّ الحُرِّية هي المحك الأساسي لكل سلوكٍ إنساني يتم عن قناعة تامة، وليس عن عادة أو قدسية وهمية.

والإنسان هو المسئول الأول عن تكوين هويته وكينونته، وليس من حقِّ كائنٍ مَنْ كان أنْ يُحدِّد له سلفًا الطريق الذي سوف يسلُكه، فلو قرر شخص مصري يعيش في إحدى قرى صعيد مصر أنْ يطيل شعره، فسوف يجد الكثير من المضايقات والتحرُّشات من معظم الناس، بدءًا من أقرب الأهل إلى أي عابر سبيل، سيكون لديهم الحق في وصفه بأبشع الصفات، والمسألة تكمن في اختفاء أي شكلٍ من أشكال الدعم، ولا أقصد هنا دعمًا للشعر الطويل، فهذا ليس بيت القصيد، المعنى هنا بالمناقشة هو دعم الحُرِّية الشخصية تحت أيَّة ظروفٍ، فكلما زاد دعم الحريات، كلما تحددتْ الهوية الحقيقية للأفراد، فالقهر يمحي الهوية، وعليه فلن نستطيع تبيُّن حقيقة هوية الأفراد إلَّا في وجود الحُرِّية المطلقة.

فالإنسان يعيش حياة طبيعية بقدر ما يتمتع بحرية في اتخاذ كل قراراته المصيرية وغير المصيرية، فإذا كان الإنسان وهويته شيئًا واحدًا، فلن تكون الهوية إلَّا مع حرية الإنسان، فعلى كل إنسان إذًا أنْ يقبض على حريته تمامًا، فالحياة لا تعاش حقًا إذا قُيدنا بما يحدده الآخرون.

وقد قال سارتر سابقًا: "الآخرون هم الجحيم" فهل هم حقًا كذلك أم نحن ـ المسئولين ـ عن تدخل الآخرين في حياتنا بطريقة سافرة؟ فها قد آن الأوان أنْ نقرر وحدنا كيف سوف تكون شكل حياتنا وتوجهاتنا، المتعة الحقيقية في هذه الحياة هي أنْ تصبح ما تريد أنْ تكونه.

(٥)

" رُبَّ فضلٍ كان في بعض الذنوب "

ما الكمال للنزيه ربَّ فضلٍ كان في بعض الذنوب

"جبران خليل جبران"

كثيرًا ما يشعر الإنسان أنه ليس من حقه أنْ يتحدث عن الفضيلة إلَّا إذا كان هو ذاته يمتلك تلك الفضيلة، وفي هذا الشأن يترك الحديث لآخرين، يعتقد أنهم أصحاب الحق الأوحد في الحديث عن الله والفضيلة، وإذا تأملنا للحظاتٍ سندرك أنَّ في كل شخصٍ حولنا فضيلة ما.

والفضيلة هي أساسًا كلها خير، ولن تتحقق فضيلة إلَّا إذا ارتبطتْ ارتباطًا وثيقًا بفكرة الحُرِّية، ويحق لكل إنسان أنْ يحاول أنْ يصبح فاضلًا بطريقته هو، فتحديد أشكال ثابتة ومحددة سلفًا لما هو فاضل أم لا، هو أمر يحتاج لكثير من التساؤل.

فالإجبار على الفضيلة هو الرذيلة ذاتها، فالفضيلة تصاحب الحُرِّية في كل مكان، فإذا أعطيتَ الفقراء للتباهي، أو لأنكَ في ضيقٍ ما وتود أنْ يساعدكَ الله، أو لأنكَ تشعر بالذنب لكثرة الرشاوى المدفوعة للكثيرين، فما أعطيته للفقراء لن يساعدكَ، فما هو إلَّا أحد

أشكال غسيل الأموال، العطاء عطاء فقط حين ينبع من القلب، وحين يصبح جزءًا من حياتكَ.

حين ترتبط الحُرِّية بالفضيلة تدوم الفضيلة، ويسعد بها الإنسان مدى الحياة، فالأم تريزا كانت تعطي بصدقٍ وحب؛ لأنها أرادتْ ذلك، فالإرادة الحرة تُخرج أجمل ما فينا.

- **الكاترازAlcatraz:**

القهر يُخرج أسوأ ما في الإنسان، إذ يحكي فيلم الكاترازأشهر السجون الأمريكية عن سجينٍ قضى سنواتٍ طويلة داخل حفرة كحبسٍ انفرادي، وحين عاد إلى السجن العادي، وبسبب القهر الشديد الذي عانى منه كثيرًا، قام بقتل مَنْ وشى عنه مستخدمًا معلقة، فالقهر يحوِّلنا إلى أشخاصٍ آخرين، والحُرِّية تُخرِّج أفضل ما فينا، وكلما زادتْ الحُرِّية، أصبحتْ الفضائل جلية، واختفى الرياء والنفاق.

حين نتزوج عن قناعة وحرية، فإنَّ احتمالات الخيانة الزوجية تكون في أقل معدلاتها، وحين نتنفس حرية في كل مناحي الحياة، ستظهر فضائلنا بوضوح، فالحُرِّية هي الطبيعة الفطرية، ونظرة على سلوك الأطفال وردود أفعالهم التلقائية، نتأكد كم الأسى الذي يعيشه الكثير من الكبار، فالطفل يتعامل مع الحياة بحرية وتلقائية وبدون أقنعة، فيسعد تمامًا، ويأتي الآباء والأقارب والمجتمع خصوصًا في الدول الديكتاتورية القمعية الأبوية، فيكبلوا، ويقيدوا أولادهم بالكثير من الأغلال، التي تحوِّلهم من أطفال سعداء

يعيشون بعفوية إلى أشياء أخرى كثيرة، وتخيل معي كم الصدمات التي يصاب بها الأطفال، حين يرون مدى التناقض بين ما يفعله الآباء وما يتحدثون به إلى أولادهم.

فحين يكون الآباء أحرارًا، فإنَّ كل ما يقدموه لأبنائهم يكون صادقًا، فإذا قلَّتْ الحُرِّية قلَّ الصدق، وليس من المطلوب أنْ يكون الأب بطلًا في نظر أبنائه، وإنما هو شخص عادي يحبهم كثيرًا، يعطي ما لديه، يصيب ويخطئ، ليس دائمًا على صواب، لكنه يقر بخطئه، فاضطرار الآباء أنْ يقولوا أشياء لا يعنوها، يرسل الكثير من الصور السلبية للأبناء.

(٦)

الحُرِّية والزواج

فبما أنَّ الزواج من أكثر العلاقات تعقيدًا في الحياة، فوجود حرية الاختيار أحد أهم الأسس التي تساعد فعليًا في بناء علاقة قادرة على الاستمرار، وعدم وجود حرية كاملة يجعل لتلك العلاقة مُسمى آخر غير الزواج، والاستمرار في تلك العلاقة لابد وأنْ يبنى على الحُرِّية، فشعور طرف من الاثنين في وقتٍ ما أنه مكبل بقيد تلك العلاقة، يصيب قدسية العلاقة بشروخٍ، تؤدي إلى كسرٍ يستحيل إصلاحه.

فحين تحب آخر قانعًا تمامًا، عندئذ تزيد قدرتكَ على التسامح وقبول الآخر كما هو، والحُرِّية في الوجود مع الآخر، هي ما تجعل السعادة حقيقية فعلًا، فالزواج هو أنْ ترغب حقًا في قضاء بقية الحياة مع شخصٍ آخر في كل أحواله وظروفه، وذلك يستتبع بالضرورة احتمالٍ وصبرٍ والتزامٍ، فكما ترتبط فكرة الحُرِّية بالاختيار، فهي ترتبط أيضًا ارتباطًا وثيقًا بالالتزام، والحُرِّية هي ما يجعلنا نحاول بجدٍّ أنْ نحافظ على تلك العلاقة القائمة أساسًا على الاختيار، ففكرة الاختيار هي ما تجعل الحياة تستحق أنْ نحياها، فحالة الاختيار هي حالة الحُرِّية، يستتبعها مسئولية تجاه ذلك الاختيار، والحُرِّية في الاختيار تزيد الدافعية والحماس لإكمال تلك

العلاقة رغم وجود الصعاب، لن يتحمس شخص لشيءٍ لم يختره، سيظل دومًا يشعر بثقل هذا الهمَّ الجاسم فوق الصدر، ولن يسعد على أي مستوى للعلاقة.

ففي كل مستويات العلاقة الزوجية، يظل الاختيار هو المحك الأساسي لمدى النجاح المتوقع، فمثلًا على مستوى العلاقة الجنسية، لن يستمتع بها الطرفان إلَّا إذا أحبا القيام بها حقًا، حين تختار أنْ تلتصق جسديًا بالآخر، فتلك رغبة صادقة في الالتصاق بالآخر، والذوبان داخل الآخر حتى تصبحا جسديًا وروحيًا شيئًا واحدًا، وهذا ما يجعل العلاقة أعمق وأكثر روحانية، وإذا تمَّ قهر أحد الشريكين على ممارسة العلاقة الجنسية، فهو أشبه بالاغتصاب لكنْ في إطار شرعي.

ويتعين علينا أنْ نتأمل ما يسمى بزواج المصلحة، وعمَّا إذا كان يختلف عن الدعارة، فأوجه الشبه كثيرة بين الدعارة وزواج المصلحة، فمَنْ يتزوج لأسبابٍ تتعلق بالمال، فإنه بكل تأكيد يفقد حريته التي هي أغلى ما يملك.

ولكي يختار الشخص أنْ يتزوج أو لا يتزوج، عليه أنْ يعرف نفسه جيدًا، ويكون واقعيًا في اختياره، ففكرة الوقوع في الحبِّ، والقول بأنَّ ذلك لم يكن بإرادتكَ هي فكرة ضد الحُرِّية والمنطق والنضج النفسي.

إذا كنتَ حُرًّا فإنكَ تختار، أما إذا استعبدتَ بشهوة الامتلاك أو المال أو الجنس، أي: أنكَ تزوجتَ شخصًا فقط لأحد تلك الأسباب، فإنكَ بعيد جدًا عن تلك الحُرِّية التي تجلب السعادة.

فحين يحاول رجل شديد الثراء أنْ يستميل قلب فتاة، وهذا مشهد كلاسيكي في كثير من العلاقات، ربما قد شهده كثير منا، فهذه حالة ابتزاز رخيصة للمشاعر - ليس إلّا - وقد يصاحبها حالة سعادة وهمية، ورسم دائم للابتسامات، لكنْ في لحظات الهدوء والتأمل بعمق في الحياة، يدرك الفرد مدى الكذِّب الذي يحيا فيه، ومدى القيد المدمي والأسوار المحيطة بحياة أشبه بالزيف الحقير.

فالزواج أساسًا مثله مثل أغلب العلاقات البشرية تعتمد على الحُرِّية، فالحُرِّية وحدها هي ما تحدد مدى مسئولية الإنسان عمَّا يقوم به.

لا يقدِّس الزواج الطقوس الدينية المصاحبة للزواج بقدر ما يقدِّسه سلوك الزوجين داخل إطار الزواج، فليستْ المراسم الدينية سوى مراسم إلّا إذا سلكنا في الحياة بروح تلك المراسم، والخصوصية الشديدة للزواج هي ما تجعل هناك قواعد ثابتة وغير قابلة للنقاش أو التعديل، لوجود صبغة دينية تضفي قدسية ما، هو أمر في غاية التعقيد حيث إنَّ قداسة الفكرة لا يتبعها بالضرورة قداسة الأشخاص، وعليه فعلينا توخي الحذر، والتعامل مع كل حالة على حده.

ومفهوم وممارسة فكرة الزواج، لابد وأنْ يعتريهما التغيير مع تغيُّر الزمان والمكان، وليس أدل على ذلك من اختلاف فكرة الزواج، وممارسته مع اختلاف المكان في العصر الحالي حتى مع ثبات عوامل أخرى.

ليملأْ كل واحدٍ منكم كأس رفيقه، ولكنْ لا تشربوا من كأسٍ واحدة

"النبي" / جبران خليل جبران

في معنى الزواج والحياة المشتركة، ينبغي وجود مساحة من الحُرِّية للفردين حتى يحاول كلاهما تحقيق ذاته، والاستمتاع بالهوايات الخاصة، في حديثٍ لي مع صديقة، قالتْ لي عن رغبتها في السفر قبل أنْ تتزوج. إذ أنها تعتقد أنها ستكون متزوجة خلال عام، وقد أبديتُ دهشتي لهذا الربط غير المنطقي، فقالتْ لي إنها عند الزواج ستقوم بعمل كل الأشياء مع زوجها.

وهذا في حد ذاته تفكير منطقي، إذا كان الاثنان لديهما نفس الميول ومواعيد عمالهما تتناسب، فليس من المنطق في شيء أنْ يقوم الزوجان بكل الأشياء معًا، توجد أشياء خاصة بكل فرد، قد تحب أنْ تستمتع بنوعٍ ما من الموسيقى، أو الألعاب، أو الرياضة، وهذه المساحة لا تقلّل من قيمة المشاركة بين الزوجين، فمن الطبيعي وجود الكثير من الأشياء المشتركة، وقد يكون من المستحيل أنْ تكون كل الأشياء مشتركة، وكلما زادتْ الحُرِّية، كلما زادتْ فرص نجاح العلاقة الزوجية.

(٧)

الحُرِّية والخوف

حين يشعر الإنسان بالخوف، تتراجع خطواته وترتعش يديه، الخوف يجعلنا لا نتحرك للأمام، فالخوف من المستقبل يجعلنا في حالة قلقٍ دائم، يستحيل معه حين ذاك أنْ نستمتع بالحاضر المُعاش.

لن يتحرك الإنسان إلى الأمام إلّا إذا نُزِعَ عنه كل أشكال الخوف، وحين يتحرر الإنسان من الخوف، فإنه يستطيع أنْ يحيا بثقة، ويخطو للأمام كاسرًا كل قيود الخوف.

- **ما هي الأشياء التي تخيف الإنسان؟**

يخاف الإنسان أنْ يخطئ فيخسر الحياة، بعد الموت الجنة أو الفردوس، وهذا ما يجعل الإنسان في حالة من التوتر التي تفسد بدورها الحياة، فالخوف من الخطأ ما هو إلّا خوف من المحاولة والتجريب، وبالتالي فهو يؤدي إلى جمودٍ شديدٍ، حين يخاف الإنسان لا تقوى قدميه على السير، يقف وتقف الحياة من حوله.

توجد كثير من الأشياء التي يخشى أنْ يفكّر بها الإنسان، فقد قيل دائمًا "توجد حدود للأفكار" وهذا محض افتراء، إذ أنَّ الأفكار تتكون أساسًا في رحاب الحُرِّية، والأفكار تنمو وتتنوع حين نلقي الخوف جانبًا، والحُرِّية تعطي الإنسان الثقة فيما يقوم به حتى إذا أخطأ، فهذا جزء من الحياة.

ومن الخطايا الرهيبة المنتشرة في العالم الإيذاء الجسدي للأطفال، وهي تضر الطفل ضررًا شديدًا، إذ أنَّ الطفل ـ وهو الأجمل في تلك الحياة، حيث الحُرِّية متجسدة بأدق معانيها في حياته ـ ترتعش يداه قبل القيام بأبسط الأشياء، وحين تعاقب الطفل جسديًا، فقد قمتَ ببناء سور بينكَ وبينه، ويصبح بعد ذلك من الصعب العبور له، كما أنكَ قمتَ بتقييد بعضٍ من الحُرِّية في داخله، وتكرار فعل الضرب يخلِّق طفلًا مهزوزًا سرعان ما يتحول إلى شابٍ لديه مشاكل نفسية واجتماعية، يفقد الثقة في نفسه في مواقف اجتماعية بسيطة.

وتربية ثقافة الخوف تعطِّل نمو الحُرِّية داخل الإنسان، فيحيا مهزوز الثقة، إذ عليه دومًا مراجعة أفعاله وفقًا لمعايير لم يكن له دور في وضعها.

فحينما نضع نسقًا أخلاقيًا لأولادنا، لابد من أنْ نشرحه لهم، ولماذا يجب عليهم أنْ يتبعوا سلوكًا ما، فقناعة شخصٍ ما بما يقوم به، تجعل من القيام بذلك سلوكًا أصليًا وليس عرضيًا، والسلوك يصبح جزءًا أصيلًا من حياتنا، ومن ثمَّ تقهر الحُرِّية كل أشكال الخوف، فالإنسان الخائف هو إنسان ميت، يسير على قدميه، يأكل ويشرب وينام، فمَنْ يخلِّق الخوف في الآخرين كمعظم الأنظمة الديكتاتورية يسرِّق الحياة منهم، وتأتي لحظة ينفجر فيها الخائف، فكثير من الثورات في العالم كان أحد أسباب قيامها كسر حاجز الخوف.

أحد أهم أسباب نجاح القيِّم والمبادئ الديمقراطية في كثير من أنحاء العالم، هي بناؤها على فكرة الحق المطلق في التعبير عمَّا بداخل الفرد، وحين تستمتع بحقِّ التعبير، الاعتراض والرفض، وحين تجد

رد فعل إيجابي تجاه أمرٍ، قد قمتَ بالاعتراض عليه، سوف تشعر في تلك اللحظة بأهمية ما لوجودكَ، وتلك أحد مميزات المجتمع الديمقراطي، فقط حين لا تخشى أنْ تعبِّر عن نفسكَ، سوف تتغير أشياء كثيرة داخلكَ وداخل الآخرين.

(٨)

الحُرِّية والتغيير

غالبًا ما يخشى الإنسان التغيير، حيث إنَّ الأسهل أنْ نعيد ما جربه الآخرين، والتغيير مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالحُرِّية، حين يفكِّر الإنسان بحرية فإنَّ فكرة التغيير تصبح أكثر قابلية للحدوث، والحُرِّية هنا مرتبطة بالبحث الموثق وعدم قبول المسلَّمات، ويتغير الإنسان لِما يريده حين يصبح قادرًا على تحليل المسلَّمات التي زُرِعَتْ داخله، وهل هي تقترب أو تشبه ما يريد أنْ يكون أم لا؟ فهل كل ما زُرِعَ داخلنا هو ما نريد أنْ نصبحه فعلًا.

قد يعيش شخص ما حياة طويلة دون أنْ يتغير، ويكتشف أنَّ ما مرَّ به ما هو إلَّا وهمٌّ، قد قضى معظم حياته في ذلك الأسر، إنَّ تلك الحياة هي ما يجب أنْ يحياها.

- **لماذا لا يتغير الكثيرون؟**

التغيير يحتاج إلى جهدٍ شاق، بادئ ذي بدء يحتاج التغيير إلى وعي بوجود مشكلةٍ ما، وهذه هي المرحلة الأولى التي من خلالها يتغير الشخص، ثم يبدأ الشخص في تحليل الواقع، ومن ثمَّ يستطيع انتقاد ما يعيقه عن التغيير، والانتقاد الذاتي يحتاج إلى الحُرِّية التي تؤدي إلى فهم أعمق للذات.

والشيء الصادم في كثيرٍ من الأحيان، هو أنَّ رفض التغيير ينبع من كسلٍ في أنْ نفكّر في الواقع الحياتي، فقد يقبل البعض أنْ يحيا كما هو؛ وذلك لأنَّ عملية تغيير السلوك ذاتها تتطلب جهدًا ومثابرة دائمة، والرغبة الشديدة في التغيير تنبع أساسًا من قناعة شديدة، ورغبة حقيقية في تغيير الواقع.

- **ماذا نحتاج لكي نتغير؟**

المعضلة الأساسية في التغيير هي أنكَ تحاول تغيير عادة، هي أساسًا تكاد تكون متأصلة أو هي فعلًا متأصلة، فتغيير تلك العادة سوف يحتاج إلى جهدٍ شاق وصبرٍ وإيمانٍ بمدى فاعلية وأهمية التغيير في حياتنا، والذي لا يرغب في التغيير إما من شدة الكسل، أو غياب الهدف، أو العشوائية التي يحيا فيها، ذلك الشخص ستجده دائمًا يحاول جاهدًا أنْ يقلّل، وقد يحقّر مما يقوم به الآخرون من محاولات جادة للتغيير، غالبًا ما نجد المحبطين والفاشلين، يستخدمون جملة (كل الناس بتعمل كده) وهذا يريحهم إلى حدٍ كبير، فإذا كان الجميع مثلهم فلا عيب فيهم.

نحتاج أشياء كثيرة، تبدأ من الحُرِّية حيث إنها تفتح الآفاق نحو التغيير، فالحياة أساسًا في حالة تغيُّر مستمر ودائم، وأحد الأسباب الأساسية للانقراض، هي عدم القدرة على مواكبة الواقع المتغيِّر بسرعة وشدة، يقول داروين: (ليس البقاء للأقوى أو الأذكى، وإنما للأكثر تكيُّفًا مع التغيُّر) فالتغيير أمر حتمي، ويهرب منه البعض لأسبابٍ كثيرة.

الواقعية في فِهم الذات، وتبدأ من فِهم أوجه القصور، وبالتالي تُحدِّد خطة واضحة المعالم، وتستطيع معرفة ما يجب أنْ تحاول تحسينه، وما عليكَ أنْ تلفظه، وما يجب البدء في تعلُّمه، فالتغيير ليس بالشيء اليسير أو البسيط، فهو يستغرق وقتًا طويلًا ومليئًا بالتحديات، وهي تلك الحياة حالة من الحركة المستمرة، ومن ثمَّ الوعي بالمشكلة، ثم تحديد خطة محددة المعالم، والجهد والمثابرة لتحقيق الهدف، هي معالم الوصول للتغيير المنشود.

(٩)

الحُرِّية والتسامح الثقافي

إنَّ الإيمان الحقيقي بالحُرِّية يتواكب تمامًا مع فكرة قبول الآخر كما هو، ووجود الاختلاف الثقافي هو جزء أساسي من الحياة، فمنذ بدء الخليقة وتلك الاختلافات والخلافات قائمة شئنا أم أبينا، وتكمن هنا أهمية الحُرِّية في كونها الدستور الذي يحكم الحياة بحيث يجد الفرد العدالة حيث يعيش.

وتكمن كثير من المشاكل في وجود ثقافة مهيمنة في مجتمعٍ ما، وفرضها كأسلوبٍ للحياة على كل الثقافات الأخرى، وذلك على افتراض أنها الثقافة الأكثر أهمية وأحيانًا أخرى الأكثر نقاءً.

ولنبدأ بفكرة قبول الآخر، وهي لا تعني إطلاقًا قبول أو رفض، أو تحليل أفكاره أو أسلوب الحياة الذي يتبعه، فهذا من شأن الشخص ذاته، فقد ترفض أفكار شخصٍ ما تمامًا، ولكنْ في وجود الحُرِّية التي تغذي التسامح الثقافي، تستطيع التعايش مع الآخرين وقبولهم، وقد ترفض صداقة هؤلاء المختلفين عنكَ، وهذا حقٌّ أصيلٌ لكَ، لكنَّ وجودهم هو أمر مسلَّم به، ولن تعارضه؛ لأنه جزء أساسي من الحياة، حيث الاختلاف هو جوهر الكون.

ومن المهازل الفكرية أنْ يعتقد البعض أنَّ من واجبه أنْ يغيِّر الآخرين إلى ما يؤمن به، على أساس أنَّ ذلك هو الحقيقة المطلقة.

من حقِّ كل فردٍ أنْ يعتقد أنَّ معتقداته هي حقٌّ مطلق وغير قابلة للنقاش، ومن حقه أيضًا أنْ يعتقد أنَّ باقي المعتقدات على غير صواب، لكنْ علينا دائمًا أنْ ندرك أنَّ اعتقادنا بعدم نفع فكرة ما لا يقلّل قيمتها، محاولات البعض المستميتة كي يثبتوا فساد فِكر الآخرين، تعكس غالبًا رغبة شديدة في إثبات صحة ما يعتقد الفرد لنفسه، وتمني البعض أنْ يؤمن الجميع بنفس الشيء يتنافى مع طبيعة الحياة.

والتعايش مع الاختلاف أحد أهم أركان الحياة التي تتطلب روحًا متسامحة مع الحياة، سعيدة بما تؤمن به رغم اختلاف ذلك مع العالم كله، لن يضار العالم إذا اعتقد شخص في شيءٍ، يختلف معه العالم كله، فجوهر الحياة الحقيقي أنْ نحيا كما نحب، وليس كما يرغب أو يرى الآخرون، فتلك هي الحياة، وحين نحيا كما رأى الآخرون نصبح مجرد مسخًا.

لكي نستمتع حقًا بتلك الحياة لابد أنْ نضع بصمة هي لنا وليس لغيرنا، وعندما نقنع بحياتنا ورؤيتنا لها، لن ننشغل كثيرًا بحياة الآخرين، وسنصبح أكثر قابلية لقبول الآخر كما هو.

الانشغال بالآخر هو في حد ذاته عجز عن الانشغال بالذات، ومن ثمَّ فِهمها، فالآخرون مختلفون في جميع الأحوال، وحين ننفتح على الآخر بهدوءٍ يصبح من اليسير التعلُّم من وعن الآخر، والانشغال الزائد بالآخر يشوِّه في أحيانًا كثيرة رؤيتنا لذواتنا، فالإنسان مطالب دائمًا بالبحث داخل ذاته، والتعرُّف على ما يجعله في حالة عشق،

قد يكون عاشقًا للموسيقى، الكيمياء، كرة القدم، تصميم الملابس، القراءة، الأطفال.

حين يدرك الإنسان ما يعشق عليه التعامل بجدية شديدة مع ذلك العشق، فالعشق وحده لا يكفي، إذ لابد أنْ يصاحبه عمل جاد ومثمر، وتلك هي الخطوة العملية تجاه تسامح حقيقي، فالتطور الذاتي الدائم ما هو إلَّا خطوة أولى تجاه حياة مثمرة.

والإبحار في الذات يساعدنا بشدة أنْ نصبح ما نريد أنْ نكون، فغالبًا الشخصيات المشوَّهة غير سعيدة بما تقوم به في الحياة، لذا لا نستطيع تَقَبُّل اختلاف الآخرين.

فلن تتقبل الآخرين قبل أنْ تقبل نفسكَ، ولن تحب أي آخر قبل أنْ تحب نفسكَ.

(١٠)

ليس كما تراه أنتَ
(الحُرِّية والآخر)

يروي لنا العبقري "توفيق الحكيم" الأسطورة اليونانية (بيجماليون) بطريقته هو في مسرحية شديدة المتعة ـ قطعة من الفن الخالص ـ إذ يحكي عن فنانٍ يدعى بيجماليون، يعشق الفن لدرجة الجنون، فالفن له هو الحياة، ما ينبض في عروقه هو الفن، ينحت بيجماليون تمثالًا غاية في الجمال لامرأة تدعى جالاطيا، ومن شدة حبه للتمثال يطلب من فينوس إله الحب والخصب عند اليونانيين أنْ تحوِّل التمثال إلى حقيقة، وتصبح جالاطيا امرأة عادية تُكنِّس وتَمسح وتطبخ، فسئم الفنان رؤية الفن الكامل يتحول إلى تلك المرأة العادية، وتحدى الآلهة أنْ تعيدها له مرة أخرى، فقبلتْ الآلهة التحدي وأعادتها إلى تمثال، وهنا يتمنى بيجماليون أنْ يعود التمثال إلى الحياة مرة أخرى، ويطلب من الآلهة لكنْ دون جدوى، ويغضب بيجماليون ويحطِّم التمثال، ويضيع كل شيءٍ، يقول الصينيون: "احذر ما تتمناه؛ لأنه قد يتحقق".

يا ليت بيجماليون استمع لنصيحة الصينيين، فلم يتمنَ دون أنْ يدرك الفرق بين الفن والواقع، فالزوجة أو الزوج واقع وليس قطعة

فنية، فقط المراهقون يتمنون الزواج من النجوم والنجمات، ولكنْ.. كيف نراهم في السينما؟ ليس هو الواقع ولا يقترب حتى منه.

لم يدرك مَنْ حطَّم تماثيل بوذا الفارق بين الفن والحياة، لم يدرك عبدالله بدر الذي أهان الفنانة إلهام شاهين وآخرين الفرق بين فن السينما والحياة، وفكرة السياق هي التي تفسر أي سلوكٍ بشري، ففي السياق الفني يكون التقييم فنيًا وليس أخلاقيًا، ولو أراد أحد أنْ يقوم بذلك مثل عبدالله بدر، فعليه أنْ يستخدم ألفاظًا تقييمية وليس إهانة للآخرين.

الفن بالأساس عمل جمالي، يدركه الدارس لعلوم الجمال والمحب للفنون، والفن قادر على أنْ يقترب من الناس، ويمس مشاعرهم، ويجعلهم أكثر رقة، وحتى حين نختلف لن نهين الآخر، بل سوف نتفهم فكرة نسبية الرؤية.

يقول "هرب كوهين" كبير المفاوضين للرئيس الأمريكي السابق جيمي كارتر: "أنا وأنتَ نرى الأشياء ليستْ كما هي، بل كما نحن عليه" وهذه حقيقة كونية، لو أدركها الجميع لما بغض أحد الاختلاف، يوجد بالعالم كثير من الأجناس والأديان، ولو أراد كل صاحب مذهب أنْ يفرضه على الجميع باعتباره الحق المطلق، وباعتبار ما يعتقدوا فيه هو ضلال مبين، لزادتْ كوارث الحياة.

حجر الأساس في بناء علاقات صحيحة، هو احترام الآخر، واحترام ما يعتقد هو أنه مقدس، حتى ولو اختلف جوهريًا مع ما تعتقد أنتَ، وببساطة لأنَّ ما يعتقده هو يكون في سياق معتقداته

مقدسًا لديه، وليس جزءًا من معتقداتكَ أنتَ، فلا ينبغي هنا أنْ تشعر بضلاله بل في هذه الحالة تعترف باختلافه، وأنتَ تؤمن بشيءٍ مغاير في سياقكَ أنتَ، والاختلاف هو الجوهر الحقيقي الذي تبنى عليه الحياة، الآخر المختلف عنكَ ينظر إلى نفس الشيء الذي تنظر أنتَ له، وقد يقدِّسه أو يحترمه، وقد لا يعني أي شيءٍ لكَ، وهذا الاختلاف هو روح الحياة.

الحق في الاختلاف أحد أهم حقوق الإنسان، أنْ تختلف عمَّا هو سائد، أنْ تقرِّر ماذا تريد في تلك الحياة، ولا يجب أنْ يعبث آخر بما تراه أنتَ أنه صحيح، ومن حقكَ أنْ تغيِّر ما تعتقد اليوم أو الغد، ثم تتراجع عن هذا وذاك، وتبدأ من جديد طالما تعتقد بضميرٍ صالح، أنَّ ما تقوم به هو ما ينبغي عليكَ القيام به، الحُرِّية في الاختيار هي ما تجعلنا ما نريد، وليس ما يريده لنا الآخرون، فلو لم تقم به اليوم.. فمتى إذًا؟.

سوف يستمر في الفن فقط العاشقون للفنون، وسوف ينسحب كافة المتاجرين بالفنون، سوف يبقى فقط الفنان الحقيقي، تحية لكل العاشقين.

(١١)

الحُرِّية وآليات التعامل مع الآخر

التراكم هو من محددات السلوك البشري، في السلوك اليومي نتصرف بحكم التعوُّد، ونحن نتعامل مع مشاكلنا كلها بنفس الطريقة حتى أنتجنا نمطًا سلوكيًا مشوَّهًا وغير واضح المعالم، فمنذ هجوم الشباب على السفارة الإسرائيلية مرورًا بالسفارة السعودية، ثم السورية، ثم حاليًا الأمريكية، لم نفهم الغرض من استخدام العنف غير المبرر تجاه طرفٍ، ليس معني بالمشكلة أساسًا، فالسفارة ممثِّل سياسي وليستْ طرفًا، وتوجد مواثيق دولية لحمايتها، فهل تقوم الدولة بدورها بحزم في حماية السفارات؟.

يقول نيوتن: "لكل فعل رد فعل مساوٍ له في المقدار، ومضاد له في الاتجاه" ومعظم ما نقوم به لا يتفق مع هذه القاعدة من حيث المقدار أو الاتجاه، بدءًا من أحداث ماسبيرو، محمد محمود، مجلس الوزراء، أطفيح، كنيسة إمبابة، استاد بورسعيد، كنيسة الماريناب ودهشور، ولكل حدثٍ منهم آلياته، والنتيجة موت وإصابة الكثير من الشباب بلا سببٍ واضح، أو قضية حقيقية.

والمتأمل للواقع المصري يجد بوضوح مشكلة تواصل جلية في معظم قضايانا، في أحداث ماسبيرو لم يتم تواصل حقيقي بين مطالب الشباب ودور إيجابي للحكومة مع أطراف الأزمة في كنيسة

قرية الماريناب بأسوان، وتطورتْ الأحداث لتؤدي لمقتل ما يقرب من ٢٥ مسيحيًا، ولم تكن تحدث تلك الكارثة لو تدخلتْ الحكومة، وعقدتْ اجتماعاتٍ جدية بحضور كافة الأطراف المعنية، لكنها أبدًا لم تفعل وقد لا تفعل، فهل يقوم الرئيس الحالي باتخاذ إجراءاتٍ تجنبنا ذلك اللَّبس، وعدم وجود قوانين محددة لبناء دور العبادة المسيحية حتى لا تتكرر المأساة، أم أننا ننسى حتى تتكرر المشكلة؟.

وينسحب ذلك على كتاب سلمان رشدي "آيات شيطانية" ورسوم الكاريكاتير المسيئة وغيرها، ثم الفيلم الحالي المسيء للرسول، فقد ساهم رد الفعل غير المنضبط، وغير الموجه إلى إلقاء اللوم على العالم الإسلامي، وتوجيه التُّهم عوضًا عن الدفاع عنه، بل وأكسب تلك الأعمال شعبية وانتشارًا، لم تكن تستطيع حصدهما، لولا رد الفعل غير المنضبط أو المنطقي.

وهل رد فعل السيد/ أبو إسلام صاحب قناة الأمة بحرق الإنجيل هو حلٌّ للمشكلة؟ إنه نفس الأسلوب الذي يرفضه هو، فقد استطاع مارتن لوثر كينج المناضل الأمريكي الأسود أنْ يجذب كثيرًا من البيض بسبب خطاب التسامح وقبول الآخر، وتأمل مدى شعبية الشيخ/ أحمد الطيب شيخ الأزهر وسط المسيحيين المصريين نتيجة لخطابه المتسامح العقلاني، ومدى شعبية الأنبا موسى أسقف الشباب لدى المسلمين المصريين.

والسؤال الآن: كيف يكون رد الفعل تجاه الإساءة للأديان عمومًا؟.

في جميع الأحوال وتحت أيَّة ظروفٍ، العنف يولِّد عنف، وهو طريق الفريق غير القادر على الحوار، وتوضيح رؤيته بشكلٍ مقنع ورصين، فلابد من إيجاد آلية حوارٍ واتصالٍ مع صانعي القرار، والمنظمات غير الحكومية، ومنظمات الحوار بين الأديان التي تدعو إلى احترام الآخر، مع التأكيد أنَّ الاختلاف هو سُنة الكون، فالاحترام لمعتقدات الآخر لا ينبع من قناعتي بأفكاره أو معتقداته، وإنما ينبع من فكرة حقِّ الاختلاف كحقٍّ أساسي من حقوق الإنسان، ولا يمكن تفسير نصٍ ديني للآخر بناءً على ما يوجد في النص الديني الذي تؤمن أنتَ به، فلن تستطيع تفسير نصٍ للدين المسيحي بناءً على قراءتكَ للنص اليهودي، أو الإسلامي، أو البهائي والعكس صحيح، فكل معتقدٍ هو منظومة متكاملة، تستطيع قراءته في حد ذاته بمعزلٍ عن تفسيرات النصوص الأخرى له، ومن ثمَّ لديكَ الحق بعد ذلك أنْ تتفق أو تختلف، لكنْ في كل الأحوال لابد وأنْ تحترم معتقدات الآخرين، ولابد من قراءة أي نصٍ في إطار الظروف التاريخية المرتبطة به، وبالتالي تستطيع تفسير النص بما يتناسب مع معطياته.

لا جدال إنَّ الأمر شديد التعقيد في جميع أنحاء العالم، لكنه يزداد تعقيدًا في المجتمعات قليلة الوعي غير القادرة على مخاطبة الآخر بنفس لغة الحوار.

(١٢)

الحُرِّية والمسؤولية

أحد أكثر الموضوعات إثارة للجدل، والجدل القائم دائمًا هو حول الحدود الفاصلة بين المسئولية والحُرِّية، ورؤية الأمر في هذا السياق هي رؤية ينقصها الكثير، فالحُرِّية والمسئولية متلازمتان، فالقوانين القائمة التي تساعد في إدارة الحياة بشكلٍ منظَّم، هي التي تجعلنا أكثر استمتاعًا بالحياة، للإنسان حقٌّ التظاهر للتعبير عن الرأي، وأيضًا الغضب والاحتجاج والرفض، لكنْ دون أي استخدامٍ للعنف، ومن حقِّ الإنسان انتقاد كافة أشكال الحياة، والأفكار دون إهانة أصحاب تلك الأفكار.

ويتضح ذلك جليًا في التجمعات الحياتية، حين يسكن الإنسان في بناءٍ من عدة طوابق، فلابد أنْ يلتزم بقواعد يتفق عليها الجميع، ولا مجال هنا لاستخدام كلمة الحُرِّية بمعزلٍ عن المسئولية، فالحُرِّية أساسًا مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالنضج الشخصي، ووضوح الرؤية.

أنا حرٌّ؛ إذن أنا مسئولٌ، فالمسئولية هنا هي حجر الأساس في اختيارات الفرد، فالفرد الحر مسئول، لذلك فهو بالضرورة يدرك تمامًا تبعات ما يقوم به، فلا نجده مثلًا يتنصل من المسئولية، فالحُرِّية تعطي قدرًا كبيرًا من الثقة بالنفس التي يستتبعها القدرة على الاعتراف بالأخطاء، وذلك جزء هام من التمتع بالحُرِّية، أنْ تعترف بمسئوليتكَ عن أخطائكَ، هذا أحد أركان الحُرِّية الأساسية.

إنكار الأخطاء، هو أحد أشكال الحياة دون حرية، كلما زادتْ المصارحة مع النفس والاعتراف بنقاط الضعف، كلما عاش الإنسان بحرية أكثر، فالحُرِّية تقودنا إلى الحياة بمسئولية.

كلما تمتع الأطفال بحرية في الاختيار، كلما زادتْ قدرتهم على التحلِّي بالمسئولية في مختلف مراحل حياتهم، وذلك يبدأ مثلًا حين تقوم بالذهاب مع أولادكَ للتسوق، فبادئ ذي بدء لابد أنْ يعلم أولادكَ ما تستطيع شراءه، وما لا تستطيع، ويجب أيضًا إعطاؤهم معلومات بسيطة عن الخامات وما إلى ذلك، ومن ثمَّ حين يقوموا بالاختيار، يشعروا بالحُرِّية والمسئولية معًا، ومن هنا تبدأ فكرة الحُرِّية والمسئولية تتبلور في وجدان وعقل الطفل، فيصبح ذات يومٍ قادرًا على اتخاذ قراراته، فالحُرِّية مثلها مثل أشياء كثيرة في الحياة، نتعلمها ونرعاها حتى نكبر معها.

تزداد الصعوبة في التعامل مع فكرة الحُرِّية، إذا لم يعتاد الشخص التعايش مع الفكرة، ووسط ثقافة تشجِّع وتغذي تلك الفكرة، فنحن في حالة صراعٍ دائم مع ما تربينا عليه، وما نعجب به من أفكارٍ في الحياة.

قد نعجب وننبهر، ثم نحاول جاهدين أنْ نتغير، وقد ننجح أو نفشل، وتزداد الصعوبة كلما وُجِدنا في محيطٍ مجتمعي لا يدفعنا نحو التغيير، وقد تكون تلك هي متعة الحياة أنْ نتعرف على أشياء جديدة، وننبهر، ونتحمس، فنحاول أنْ نتغير، والمحاولة في حدِّ ذاتها متعة شديدة.

(١٣)

الحُرِّية والسعادة

السعادة هي ما نسعى إليه طوال الحياة، والحُرِّية هي أهم مفاتيح السعادة، فالتحرر من السعي الدائم للتملُّك، والشعور بالسعادة عند التملُّك فقط، هو ما قد يصيب الفرد بالإحباط في حال عدم تملُّكه أشياء بعينها، السعادة ليستْ في الامتلاك، وهذا ليس ضد أنْ تتملَّك أشياء، لكنْ إذا كانت السعادة في الامتلاك، فلن يسعد أبدًا فرد مهما امتلك... فحين تكون السعادة في الامتلاك، يصبح الصراع هو الطريق والهدف، وتصبح السعادة بعيدة المنال، فليستْ الأملاك طريق السعادة، وإذا نظرنا لتخلّي بيل جيتس "Bill Gates" وأوبرا وينفري "Opera Winfrey" عن ثرواتهما، سوف نتفهم كيف يتكون الشعور بالسعادة عند التخلّي والعطاء، وسوف نتفهم أيضًا مدى سعادة الأم تريزا في عطائها الشديد، فالتحرر من فكرة الامتلاك يفتح باب السعادة.

حين تكون السعادة هي الهدف، تصبح الأولويات أكثر منطقية مع فكرة السعادة، نحن نقابل كثيرين في تلك الحياة، منهم: السُّعداء والتُّعساء والأشقياء، وآخرين أحيانًا لا يدركون إذ كانوا يحيون في سعادة أم شقاء، وآخرين يصفون لكَ سعادة هم لا يلمسوها في حياتهم، وكأنهم يتمنون أنْ يعيشوا ما يتحدثون عنه.

- **السايس السعيد:**

أعرف "سايس" سياراتٍ في منطقة الزمالك، وهو من أسوان، شخصية دائمة الابتسام، ولديه شعور بالرضا الواضح الذي قد يحيِّر الكثير من متجهمي الوجوه من بعض أصحاب الملايين، إذا أعطيتَ هذا الرجل أيَّة نقودٍ، لا ينظر إليها، فقط يطبِّق يده عليها، أو يضعها في جيبه شاكرًا ربه على هذا العطاء.

الشعور بالسعادة هو قرار شخصي في أغلب الأحيان، فالكثير يسجنون أنفسهم في أخطاء الماضي، ويعيشون لحظاتٍ مريرة نادمين على ما فعلوا، وقد يكون ما قاموا به بشعًا شنيعًا، لكنَّ الأكثر بشاعة هو الجلوس في حجرتكَ متأملًا الماضي، فالقيام بذلك أشبه بعملية تعذيبٍ ذاتي لا تؤدي في النهاية إلى أيَّة تغييراتٍ حياتية حقيقية، والحقيقة أنَّ كلنا نخطئ، ومهما كانت جسامة الخطأ فلا البكاء حلاً ولا تعذيب الذات منطقًا، فالمنطق العملي هنا يحتم علينا تقييم قدراتنا الحقيقية، وعمل ما نستطيع عمله، والحركة نحو الأمام هي أكثر الخطوات المسببة للسعادة، تجد الكثير من الناس يصاب بالحزن الذي قد يصل إلى حد الاكتئاب حين يتقاعدوا عن العمل، فالعمل هو أحد أشكال الحركة الحياتية، وأحد مسببات السعادة والشعور بالرضا.

- **لا تقف ساكنًا، فقط تحرك للأمام:**

ففكرة التحرُّك، هي فكرة التطوُّر والنمو، وذلك مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالسعادة، كلما تعلَّم الإنسان وتعرَّف على أشياء جديدة، كلما ساهم

ذلك في الحركة نحو المستقبل، والابتعاد عن التشبُّث بخطايا الماضي التي قد تسجنه إلى الأبد في شعورٍ بالذنب، لن يسهم في محوه كثرة التفكير فيه، فكلما زاد تفكيركَ في أخطاء الماضي، كلما قلَّتْ قدرتكَ على رؤية المستقبل، وقلَّتْ قدرتكَ على الحركة، فقط حين تتحرك تكتشف أشياء جديدة، تجد الحياة حين تكتشف، ومن ثمَّ تتغير وتتفتح لكَ آفاقًا جديدة.

- **إبراهام لنكولن Abraham Lincoln:**

فكّر معي في قصة ذلك الرجل إبراهام لنكولن ١٨٠٩م ـ ١٨٦٥م، فقد وظيفته في عام ١٨٣١م، هُزِمَ في انتخاباتٍ تشريعية في عام ١٨٣٢م، فشل في مشروعٍ تجاري في عام ١٨٣٣م، ونجح في انتخابات الهيئة التشريعية لولاية إلينوي في عام ١٨٣٤م، توفيتْ حبيبته في عام ١٨٣٥م، وأُصيب بانهيارٍ عصبي في عام ١٨٣٦م، خَسِرَ الانتخابات في عام ١٨٣٨م، خَسِرَ انتخابات الكونجرس في عام ١٨٤٣م، ثم نجح في انتخابات الكونجرس عام ١٨٤٦م، ثم فَشِلَ في إعادة الانتخاب للكونجرس عام ١٨٤٨م، وفي عام ١٨٥٤م هُزِمَ في انتخابات مجلس الشيوخ، وفي عام ١٨٥٦م هُزِمَ كنائبٍ للرئيس، وفي عام ١٨٥٨م هُزِمَ مرة أخرى في انتخابات مجلس الشيوخ، لكنه أصبح رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٨٦٠م.

تأمل معي حياة إبراهام لنكولن، تأمل فيما حدث، لقد سقط كثيرًا ونهض كثيرًا، ومما لاشك فيه أنَّ تلك هي الحياة نسقط ونقوم، وذلك

الصراع النبيل هو عمق الحياة، فلو سقط شخص في الطريق، وظل قابعًا، باكيًا ونادمًا، لكانت الحياة بكائية شديدة الكآبة، فالحياة هي القيام من السقوط.

هل تعلم أنَّ المدرس أخبر توماس أديسون أنه أغبى من أنْ يتعلَّم أي شيءٍ، لكنه لم يتوقف كثيرًا أمام ما قاله ذلك المدرس، وعمل واجتهد كثيرًا حتى أصبح لديه أكثر من ألف اختراع.

- **والت ديزني Walt Disney:**

فكَّر أيضًا في والت ديزني "Walt Disny" تمَّ الاستغناء عنه من الصحيفة التي يعمل بها لقلة خياله، وعدم تمتعه بأفكارٍ أصلية إبداعية، فقام هو باختراع شخصية ميكي ماوس "Mickey Mouse" وكان مخرجًا، وكاتبًا، ورجل أعمال، وكان شديد العطاء في أعمال الخير.

فتلك القصص، وغيرها الكثير توضح مصادر السعادة المتعددة.

تأمل سعادة كثير من الآباء حين يعطوا دون حدود، فلم ولن يجبرهم أحد على ذلك العطاء غير المحدود، فهو نابع من الحُرِّية، فكلما أجبرتَ الإنسان على فعل شيءٍ ما، كلما كانت النتائج العكسية أقرب إلى الحدوث.

نجد السعادة حين يتناغم ما نفكّر فيه مع ما نقوله وما نفعله

" غانـدي "

السعادة الحقيقية موجودة داخلنا، فعلينا العمل بجدٍّ حتى نكتشفها، ما يقوله غاندي عن السعادة، هو شديد الصدّق والواقعية في آنٍ واحد، فكثير من الأمراض النفسية التي يصاب بها الناس لها علاقة كبيرة بعدم القدرة على فعل ما نقوله ونفكّر فيه، كثير من الناس يفتقد التلقائية في حياته لدرجة أنه يكاد لا يعرف نفسه من كثرة ارتداءه لقناعاتٍ متنوعة، يرتدي كل واحدٍ على حده، وعندئذ يفقد الإنسان اتساقه مع ذاته، فهو يقول ما لا يقنعه لإرضاء كل مَنْ حوله، فتارةً يرضي الزوج أو الزوجة، ثم المدير، ثم آخرين وآخرين، حتى يجد نفسه يقول كلماتٍ غريبة عليه، ولا يعرف إنْ كانت تلك كلماته أم كلماتٍ فرضتْ عليه، وحين تفرض علينا الكلمات التي تخرج منا، نفقد كثيرًا من السعادة، فالسعادة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالتلقائية، وكلما زادتْ تلقائية الإنسان، كلما زادتْ احتمالية أنْ يصبح سعيدًا.

فما يخرج من القلب، هو أنتَ كما أنتَ بكل مميزاتكَ وعيوبكَ، وقد يعطيكَ هذا أيضًا فرصة في أنْ تعرف نفسكَ كما أنتَ، وعندئذ تستطيع أنْ تُغيِّر من نفسكَ إلى الأفضل بالنسبة لكَ.

والأفضل في حد ذاته أمر نسبي بحت، لم ولن يتفق عليه الجميع، ونتأمل ولو قليلًا ذلك الصبر المضني، والمثابرة الشديدة لدى العالم الكبير إسحق نيوتن، وكبير رسامي عصر النهضة مايكل أنجلو، ماري كوري، فيروز وكثيرين وجدوا سعادة فيما يقومون به، وكلما

زاد محيط الحُرِّية، كلما زادتْ الرغبة في التحليق عاليًا نحو آفاقٍ جديدة، فالحُرِّية هي الوقود الذي يشعل داخلنا الرغبة في استكشاف أغوار ودهاليز الحياة، ومن ثمَّ نستطيع أنْ نعرفها، فنسعد بها.

- **خوزيه موخيكا José Mujica:**

إنه حقًا رجل سعيد، خوزيه موخيكا رئيس أوروجواي Uruguay يتبرع بـ٩٠% من راتبه البالغ ١٢٥٠٠$، فيتقاضى فقط ١٢٥٠$، وتقوم زوجته بالتبرع بجزءٍ من راتبها هي الأخرى، ويلقبوه بأفقر رئيسٍ، لكنه ليس أبدًا كذلك، ليس لديه حساب بالبنك، ومتعته الشديدة هي قضاء وقت مع "مانويلة" كلبته، ويعيش في منزلٍ ريفي، ويركب سيارة فولكس واجون Volkswagen قديمة.

المال يفقد بريقه بمرور الوقت، ولكنْ توجد أشياء لا يستطيع المال القيام حيالها بأي شيءٍ، السعادة مرتبطة بنوعية الحياة والرضا، وليستْ بكثرة المال المخزَّن في البنوك، وفي نهاية المطاف الفرد يصنع حياته من خلال قراراته، والسعادة في حد ذاتها قرار.

ليس المال في حد ذاته سببًا للسعادة أو التعاسة، إنه نحن، نحن ما نسعد أو نشقي أنفسنا.

(١٤)

الحُرِّية وبناء الإنسان

دائمًا ما يصاب العقل بالحيرة، وينفجر غضبًا رافضًا الكثير مما يراه في واقعٍ، يكاد يصل إلى درجة من العبثية والسواد، في أحيانٍ يتعثر معها فِهم الواقع، وفِهم سلوك وردود أفعال الآخرين، ويبدأ تساؤل منطقي.. كيف يكون عقل الكثيرين بهذا الانغلاق، ورفض كل آخر دون حتى معرفته أحيانًا؟.

وتتجلي الصورة حتمًا، حين نفكّر في الحُرِّية كمصدرٍ أصيلٍ وأساسي في بناء إنسان قادر على التعامل مع الحياة، واتخاذ كل قراراته بنفسه، وليس بناءً على ضغوطٍ عائلية أو مجتمعية.

ففي نظام مجتمعي أبوي غالبًا لا يكتشف الأشخاص هويتهم الحقيقية، والكثير منهم يظل أسير الأنماط السائدة إلَّا هؤلاء المتمردين القادرين على إحداث التغيير في أي مكانٍ، ففي المجتمع الأبوي تُرسم الأدوار مسبقًا، وعلى الممثّلين القيام بأدوارهم وإلَّا سوف يتم نبذ المتمردين بنظامٍ محكم، وتكون هنا الحُرِّية هي الملجأ كي يعيش الإنسان فرديته.

ومكونات بناء الإنسان عديدة بدءًا من الأسرة، الدين، العادات والتقاليد، وسائل الإعلام، الثقافة السائدة، يكون من الصعوبة بمكان أنْ يصبح الإنسان حُرًّا في مجتمعٍ تسوده ثقافة القهر المطلق غير

القابل للنقاش، وهذا ما يوضح صعوبة أنْ تكون حُرًّا في مصر وكثير من دول العالم، إنْ لم يكن أغلب العالم بدرجاتٍ مختلفة.

لابد أنْ يعيش الإنسان في حرية مطلقة حتى ولو أخطأ، فالخطأ جزء من الحياة، ومَنْ منا لم يخطئ قط، وما أجمل تذكُّر قصة المرأة التي أمسكها بعض اليهود في حالة زنا، وقدموها للسيد المسيح كي يحكم عليها، وفي شريعة موسى كان الحكم، هو الرجم حتى الموت، لكنْ.. ماذا فعل المسيح؟.

هنا، قال لهم السيد المسيح:

ـ مَنْ كان منكم بلا خطيئة، فليرمها بحجرٍ.

وحينئذٍ أدرك الجميع أنهم لن يستطيعوا أنْ يلمسوا تلك المرأة فرحلوا، فليس منا ولن يكون مَنْ هو بلا خطيئة، وتعد هذه القصة من وجهة نظري من أعظم ما كُتِبَ في الكتاب المقدس، فهي تتحدث عن مدى ظلم البشر بعضهم لبعض، واستخدامهم للنصوص الدينية لقهر الآخرين والحكم عليهم، وذلك فيما هم غافلين عن خطاياهم، إذ ليس من الطبيعي أنْ يكون لإنسان الحكم على آخر مهما كان موقعه، أو حتى مركزه الديني.

وهنا تتضح أهمية وجود دستور يكرِّس قيمة مدنية الدولة، وأنْ لا تعطي فرصة للبشر لتطبيق ما يعتقدون، إنه قانون مقدس لديهم، فكم من الجرائم ترتكب باسم الدين والعقائد.

أبناؤكم ليسوا لكم.. أبناؤكم أبناء الحياة

والحياة لا تقيم في منازل الأمس

"جبران خليل جبران"

كم قُيِّدتْ حرية الكثير من الأبناء؛ لأنَّ أهلهم رأوا أنْ يرسموا لهم الحياة التي يرون أنها الأمثل، وعانى الكثير من حياة لا يرغبون فيها، والكثير من الآباء يتمنون أنْ يروا أولادهم تنجح فيما أخفقوا فيه، فلمَنْ هذا النجاح إذًا؟! وحين يعيش شخص ما حياة خططها له آخرون، فكيف له أنْ يكتشف ذاته، وينطلق الإنسان مكتشفًا ذاته حين يكون حُرًّا.

فتكوين عقل حر، ليس بالأمر اليسير، والعقل الحُرُّ لا يخاف أو يرتعش من مواجهة المجهول، ولا يحاول أنْ يلعب على الضمان، فهو يمتلك الجرأة الكافية لفك كل القيود، وعلاقة الحُرِّية بين الآباء والأبناء ترتبط ارتباطًا وثيقًا بمعايير كثيرة، مثل: المرحلة العمرية، ودرجة الوعي والتعليم.

ونظرًا لاختلاف الأجيال بين الآباء والأبناء، فتختلف نظرة كليهما للحياة وهذا أمر طبيعي، ولكنْ يظل كثير من الآباء في حالة صراع دائم مع أبنائهم؛ كي يصبحوا نسخة طبق الأصل في كثيرٍ من الأمور.

إذًا فمن الطبيعي أنْ يختلف الآباء والأبناء في كثيرٍ من الأشياء، وهذه هي الحياة، أنْ نختلف ونقرر، أنْ نسير في طرقٍ جديدة قد

تبدو غير مضمونة، أو عسيرة وغير واضحة المعالم، ومع ذلك نسير فيها رغم الصعاب، مَنْ أجبر الأخوين رايت The Wright brothers أنْ يحاولا كثيرًا حتى تنجح تجربة الطيران، فقد كان الدافع الأساسي هو العشق لفكرة الطيران التي سيطرتْ على حياتهما، فأصبحتْ شغلهما الشاغل، وكيف تحوَّل عزت أبو عوف للفن وترك الطب، ويحيى الفخراني الذي ارتمى في أحضان الفن وآخرون.

حين يدرك كل فردٍ.. ماذا يريد تمامًا، ويصبو إليه بكل طاقته، فالنجاح هنا مسألة وقت، ونحن نضيع الكثير من الوقت في النظر، وإعادة النظر فيما قام به الآخرون دون النظر داخلنا أولًا، فنفقد البوصلة التي تقودنا نحو الهدف، والتركيز الشديد فيما يقوم به الآخرون، هو أحد العوائق التي تُحيِّل بيننا وبين فِهمنا لذواتنا، فوضع الآخر نُصب أعيننا غالبًا ما يصيبنا بالعمى، فالتركيز في الذات، وما تستطيع القيام به، يكشف لكَ قدراتكَ الذاتية، وما تستطيع القيام به حين تحاول.

مشكلة الكثير من الآباء، هي محاولاتهم الحثيثة رؤية أحلامهم التي لم تتحقق محققةً في أبنائهم، فيحاولوا جاهدين رسم حياة الأبناء في أغلب التفاصيل وخصوصًا العمل، فمَنْ فَشِلَ، ومَنْ نَجِحَ في أنْ يصبح طبيبًا يرغب في نفس الشيء لأبنائه أنْ يصبحوا أطباء - وعجبي - أدرك تمامًا أنَّ كثيرًا من الآباء لا يدركون لماذا يرغبون في أنْ يصبح أبناؤهم أطباء، وقد تكون فكرة الوجاهة الاجتماعية لتلك الوظيفة، هي المحرِّك الأساسي للضغط على الأبناء، وقد

يكون الأب رجل أعمال، ويرغب في ترك كل أعماله لأحد أبنائه، وهذا إلى حدٍ كبير يبدو منطقيًا، لكنه ينزع فكرة الاختيار من حياة الأبناء، وتلك هي الكارثة الكبرى، وهذا يجمد إلى حدٍ كبير معرفة الطفل لنفسه ولقدراته، فالطفل يعرف نفسه حين نعطِه الفرصة لاكتشافها، والاكتشاف يعتمد على مدى الحُرِّية.

وفي محاولة اكتشافنا لذواتنا، نرتكب أخطاءً، نحتار، نأمل، ثم نيأس، نتعلَّم ونعلِّم، وتسير الحياة، ونرى المبدعين في كافة المجالات، وهم الذين استطاعوا أنْ يتعرفوا على العشق الكامن في قلوبهم، وعملوا جاهدين على تحقيق ما حلموا به.

(١٥)

وتظلُّ الحُرِّية هي الحل

تحاول كافة القوى السياسية على مر العصور، وفي كل مكانٍ أنْ ترسخ وجودها في الواقع السياسي عن طريق العديد من الطرق، إما عن طريق إقصاء الآخر، أو عن طريق تشويهه، وطرق أخرى كثيرة، ولنا في التاريخ شواهد كثيرة، ويظل الطريق الأكثر حكمة وديمومة، هو طريق مختلف تمامًا.

طريق التنمية المستدامة، هو الطريق المؤدي إلى الخلاص من عالم اللّت والعجن، الكلام المستدام لن ينقذ واقعنا المزري من الانهيار، فقد آن الأوان أنْ نتوقف عن الكلام، ونعمل نحو آفاق مستقبلٍ ينعم فيه الجميع بحقوقٍ متساوية بعيدًا عن هذا الفِكر القبلي الذي يتزعمه حزب النور، والفِكر العنصري الذي ترأسه سابقًا الإخوان.

لم نشهد طوال وجود اليمين الديني المتطرف في سدة الحكم أفكارًا تنموية تجعل لديهم مبررًا ما من الوجود في المشهد السياسي المصري، الوجود في أي مشهدٍ في الحياة، لا يرتبط بحقِّ الوجود، وإنما بالجدارة في الوجود، والجدارة هنا ترتبط بالتنمية والفِكر الإبداعي، وهو ما يفتقده تمامًا تيار اليمين الديني المفلّس، ليستْ القضية هنا أنْ تحكي بكلماتٍ دينية منمقة عن الإصلاح، وأنتَ فاسد ومخرِّب، ولا تقبل الآخر.

التيار اليميني الديني مفلّس تمامًا، لا يملّك سوى المشاكسة، وإضاعة الوقت بعدما فَشِلَ في إدارة البلاد، ففكرة الكفاءة الإدارية لم تخطر على باله قط، وإنما الشللية والأهل والعشيرة تربعوا على عرش الحكم، فأضاعوا الحكم، وكادوا أنْ يضيعوا البلاد معهم.

المصريون في وجود أي دستورٍ، لابد وأنْ يصبحوا متساوين أمام القانون، لذا فلا مجال لنبذ أي فريقٍ مهما صغر حجمه، أو لم تعترف به الأغلبية، ولابد أنْ يعلّم الجميع أنَّ احترام حقوق الأقليات مهما قلَّ عددهم، يساعد في بناء وطن قوي، تندمج فيه الأقلية، وتصبح أكثر فاعلية، لابد من مراعاة حقوق المصريين غير المسلمين والمسيحيين، وبما أنَّ معظم دساتير العالم والمنطق والفطرة تنادي بحرية العقيدة، وبما أنَّ المنطق الوطني، يقول: "أنَّ كل مَنْ وُلِدَ في أرض مصر، فهو مصري"؛ لذلك وجب على الجميع احترام فردية الجميع، لن ينهض وطن إلَّا حين يشعر كل مواطنيه بأنهم جزء أصيل من تراب الوطن.

اعترافكَ أو إنكاركَ لبعض العقائد، لن ينفي وجودها، وأساسًا ليس من حقكَ مناقشة الآخرين فيما ذهبوا إليه على أنه الحق المطلق لديهم، دوركَ ينتهي عند حدود حقكَ في نشر أفكاركَ دون التعرُّض للآخرين بأيَّة إهانة أو تجريح شخصي، والشخص السعيد بما يؤمن لن يعنيه كثيرًا اختلاف الآخرين معه، لكنه قد يجد أيضًا فيها الكثير من الأفكار الروحية، التي تشبعه نفسيًا في كثير من الأحيان.

مَنْ لا يطيق الحُرِّية، هو شخص خائف ومذعور، وليس عنده ما يقدمه، فهو يخشى كل جديدٍ ومختلف، وليته قادر على عمل

اختلاف في الواقع، ولدينا في الواقع المصري الكثير من المذعورين والمأجورين والمنافقين، لذا علينا جميعًا أنْ نتحرر من الخوف، وننطلق، ونبدع، فالحياة أقصر من أنْ تضيع خوفًا من أنْ نعيش...

وتظلُّ الحُرِّية هي الحل.

الفصل الثاني

تناقضات من واقع الحياة

(شوية حاجات)

(١)

التنميط المميت

من أكثر الأشياء المُحيِّرة والمقلقة معًا في مصر، هي كثرة التنميط الذي يختفي معه تقدير الاختلافات الفردية، ففكرة عمل أشياء بعينها لمجرد قيام الآخرين بها، هي نمط يكاد يكون سائدًا في مختلف الأوساط الاجتماعية والثقافية.

كثيرٌ من المصريين يرغبون في أنْ يصبح أبناؤهم إما أطباءً أو مهندسين بغض النظر عن قدرات هؤلاء الأبناء، فليس من المنطق في شيء أنْ يعتقد كثير من الآباء أنَّ هذا هو أفضل ما سيقوم به أي طفلٍ في العالم، وتخيلوا معي لو أنَّ اللاعب العبقري مارادونا كان طبيبًا، وليس هذا الساحر الذي أمتع الملايين بإبداعٍ لا يقلُّ في أي حالٍ من الأحوال عن المجالات الأخرى.

والأمثلة كثيرة ومتنوعة في كل مجالات الحياة، تخيَّل معي العظيمة فيروز إذ قام والداها بإجبارها على أنْ تصبح طبيبة أو مهندسة، تخيَّل معي فاروق الباز، بيل جيتس، محمد يونس، فاتن حمامة، والأمثلة كثيرة وعلى الجميع أنْ يبدأ في حصر الأمثلة، فتنميط قدرات الأفراد هو أمر عبثي، فالتنميط يحجب رؤيا الأفراد في اكتشاف قدراتهم، وتلك هي الكارثة الكبرى، قد يحيا شخص ويموت، وهو غير مدركٍ لِما يستطع أنْ يقوم به، وهو قد يستطيع

القيام بأشياء عظيمة، لولا خضوعه لذلك القالب المميت، فإياكَ من أي قالبٍ، علينا أنْ نكسر تلك القوالب، وعند كسر القوالب سوف تنفتح آفاقًا جديدة، وسوف نرى أشياء جميلة.

ورؤية الإنسان لنفسه بصدقٍ، ومعرفة قدراته الحقيقية، وأيضًا التفتيش الدائم المتواصل في دواخلنا، سوف يصيبنا بالدهشة مما نستطيع عمله، فنحن نستطيع عمل الكثير حين نؤمن بفرديتنا وتفرُّدنا، ونخسر أشد الخسارة حين نركِّز على تقليد الآخرين.

لماذا تقام سرادق عزاء مكلِّفة في كثير من الأماكن الشعبية في مصر؟ وقد تجد أنَّ بعض أهالي المتوفى، قد اقترضوا أو باعوا مما يملكون حتى يكون العزاء لائقًا بالمتوفى، ونتوقف هنا عند كلمة (لائقًا بالمتوفى).. هل لها أي علاقة بالمنطق؟ هل يوجد أي منطقٍ في استدانة الشخص لكي يقيم العزاء الفاخر المتفاخر به؟ فما هي الأهمية القصوى من وراء ذلك؟ ناهيكَ عن استخدام مكبرات الصوت سواء كان فرحًا أو مأتمًا، مع العلم بوجود قاعات سواء للأفراح أو العزاء في جميع الأماكن، فاستخدام مكبرات الصوت إنْ دلَّ على شيءٍ، إنما يدل على مشكلة ما يعاني منها أصحاب الفرح، إذ أنَّ لديهم إصرارًا غير طبيعي على إخبار الجميع بأنهم سعداء، وسوف تقل تلك السعادة حين لا يعرف الآخرون، وسوف يعرف الآخرون مدى سعادتهم سواء أراد الآخرون أم لا، لا يوجد منطق يبرر هذا الاستخدام التعسفي لمكبرات الصوت سواء كان ذلك فرحًا أم حزنًا.

مازال كثير من المصريين يشتري قطعة أثاث لا يُعرف حتى الآن استخدامها، أو أين يجب أنْ توضع بالمنزل، النيش Niche وهي عادة موروثة من الصعب أنْ تجد لها منطقًا محددًا، فكثير من الناس يشتريها مع العلم بأنها ليستْ رخيصة، أو لها استخدام محدد بالمنزل، ولكننا تعودنا على أنْ نشتري تلك القطعة دون وعي أو إدراكٍ لماذا نشتريها.

فشراء تلك القطعة ما هو إلّا نمط سلوكي مكرر، فقليل من التفكير المنطقي فيما نقوم به من أفعال، سوف يطرح الكثير من الأسئلة المنطقية في نوعية حياة يغيب عنها المنطق في كثيرٍ من الأحيان، وتلك اللامنطقية التي تحيط بنا من كل الاتجاهات، تجعلنا نتمسك بشدة بأنْ يسود المنطق بحيث تصبح لدينا قدرة أفضل على رؤية الحياة.

(٢)

التطفل البغيض

نتساءل دائمًا عن سرِّ تدخل الآخرين في حياتنا بطرقٍ سافرة، إذ أنهم يتدخلون ليل نهار، وكأنَّ لا رادع لهم ينهاهم عن العبث بحياة الآخرين، وكأنَّ لهم مصلحة ما، وهم دائمًا في وهمٍّ أنهم على دراية بمصلحتكَ أكثر منكَ، وما يثير أعصابكَ هو ذلك الإلحاح المتواصل على إسداء النُّصح في كل الأشياء التي لا تعنيهم، بدءًا من.. لماذا لم تتزوج أو تتزوجي حتى الآن؟ ولابد أنْ تتزوج الآن حتى تستطيع أنْ تربي أولادكَ، ويكبروا في حياتكَ!.

وحين تتزوج توجد أسئلة أخرى، مثل: متى ستأتي الأولاد، ثم متى يأتي إخوة للأولاد، وحين يتم كل ذلك، يسألكَ متى ستنتقل إلى شقة أكبر، ثم متى تنتقل إلى منطقة أرقى، وهلُم جرى حتى تكاد من شدة كظم الغيظ أنْ تفتك بمحدثكَ، وقد يكون هذا الكلام منطقي وصحيح، لكنَّ المشكلة ليستْ أبدًا في ذلك، وغالبًا ما يدرك محدثكَ أنكَ تفهم وتعي ما يقول تمامًا، لكنْ ما يقوله يستفيد هو منه في رفع الكثير من روحه المعنوية، إذ يشعره ذلك بالتفوق ولو للحظاتٍ.

حين تجلس إلى كثيرٍ من الناجحين المنجزين، فهم غالبًا ما يسدون النُّصح فقط حين يُطلَّب منهم، ولا يتكلَّمون في كل الأشياء، بل فقط فيما يعرفون، ويستخدمون كثيرًا كلمة "لا أعرف" التي لا تستخدم كثيرًا في مصر.

وكلما زاد الإنسان معرفةً، كلما زاد تواضعًا، وزاد إدراكًا بمدى أهمية المعرفة والعلم.

والتدخل في حياة الآخرين أحد سمات الفاشلين، فجُل همهم في الحياة هو وضع خطة للآخرين... حين تنشغل حقًا بما أنتَ فاعل في تلك الحياة، سوف تجد من الصعوبة بمكان أنْ تجد وقتًا حتى تبحر في حياة الآخرين محاولًا إيجاد حلولٍ لهم.

قمة السعادة أنْ نبحر في تلك الحياة، نستكشف الجديد كي نتعلَّم منه، وهذا الاهتمام الشديد بحياة الآخرين ما هو إلَّا مرض معذب للجميع، ودائمًا ما نستمع إلى نفس الجملة، أنَّ محدثكَ يقترح وينصح ويسأل لا لشيءٍ سوى أنه يطمئن عليكَ، وهذا يثير الأعصاب أكثر من أي شيءٍ آخر، فتصبح في حيرة من تلك الشخوص، ولا تعرف كيف تصنِّف هذا الاهتمام المحموم.

صديقي لا عليكَ أنْ تفعل شيئًا سوى أنْ تتجاهل هذا التطفل، فلابد أنْ نتحرك إلى الأمام، وحين نتحرك سوف تخفت تمامًا أصوات المتطفلين، فالحركة للأمام هي الحياة.

حين تجلس منصتًا لنصائح الآخرين، سوف يخفت صوتكَ الداخلي، ولن تسمع ما تصبو إليه حقًا، أنْ تكون لديك الفرصة أنْ تكتشف بنفسكَ ما تبغي أنْ تقوم به في تلك الحياة حتى وإنْ رآه الآخرون تافهًا حقيرًا.

(٣)

حكمة السنين (جدتي)

كانت "بلبل" تعمل في بيت العائلة، كانت تساعد جدتي في كافة الشئون المنزلية، وما بقي في ذاكرتي هو وقت الغداء، حيث كنا نأكل جميعًا وبلبل معنا أيضًا، وكانت ذي خفة ظل وروح مرحة صافية، مبتسمة دائمًا، وفي ذلك الحين لم أُفكر كثيرًا في روعة ما كانت تقوم به جدتي، إذ كنتُ صغيرًا، ولكنه كان ذا تأثيرٍ عميق فيّ، إذ كانت البساطة هي العامل الأساسي، والمحرِّك للأحداث من حولي، وحين أرى اليوم مدى هيمنة فكرة التباهي، الفشخرة، وانتفاخ الذات، أذكر جدتي وكيف كانت تتعامل مع "بلبل" وكم ذكي هذا السلوك رؤيتي للحياة.

الفشخرة سلوك مرضي، يتفشى في كثير من الطبقات الاجتماعية المصرية، ويحرِّك السلوك في اتجاهات مضادة للحياة، إذ يصعب أنْ يتعامل مع الحياة ببساطة وهدوءٍ، حين يتطور هذا السلوك عند شخصٍ ما، يصعب عليه الاستمتاع بالحياة بدون فشخرة، وتسبب الاحتياجات المصاحبة للفشخرة مشاكل عديدة، أحيانًا لا يستطيع الفرد تلبية احتياجات الفشخرة، ولكنه يجد نفسه أحيانًا مضطرًا أنْ يتبع سلوكًا ما مهما تكن العواقب، وعليكَ التفكير مليًا في جملة تتكرر في كثير من الأوساط الاجتماعية "الناس تاكل وشنا"

وارتباط سلوكٍ ما بما سوف يقول الناس عنكَ إنْ لم تقم به، يثير كثير من الأسئلة حول مدى حريتكَ في تنظيم حياتكَ، وسلوك الفشخرة مرتبط أساسًا بضعفٍ شديد في الشخصية، إذ أنه حين لا يقوم به المتفشخِّر، يشعر أنه ينقصه الكثير، ويصبح بالتالي أساسًا حياتيًا، في العلاقات العميقة تنبع قيمة الإنسان من وجوده هو، وليس مما يملك، فمهما تمتلك فلن يؤثر ذلك على قيمتكَ سوى لفترة مؤقتة، ومع أشخاصٍ لا يحبونكَ لذاتكَ، ويزيد هذا السلوك في "المجتمعات الموجهة من الآخرين others oriented society".

وهي ظاهرة واضحة في المجتمعات التي تتصرف وفقًا لما يتفق عليه المجتمع كسلوكٍ أو اتجاهٍ مقبول، وينسحب ذلك على كثيرٍ من العادات الاجتماعية في الزواج والممات، ففي وقتٍ ما تتجه معظم البنات لطلبٍ ما في الشبكة، أو إقامة الفرح في مكانٍ ما وبطريقةٍ ما، ويتجه كثير من الشباب للالتحاق بدراسةٍ ما، وشراء نوعٍ ما من السيارات بحكم تأثير الآخرين، وليس بحكم القناعة الشخصية.

والمشكلة تكمن في عدم البحث، والتفتيش العميق عمَّا يريد الشخص، بل يتحول الفرد في بعض الأحيان لشخصٍ يبحث عن رضاء الآخرين.

(٤)

المرأة شريك حقيقي

في باريس حيث الذهاب للسوبر ماركت متعة شديدة، اشتريتُ الكثير من الخضروات، ولأني معتاد أنَّ ثمَّة شخصٍ ما يقوم بالوزن، ومن ثمَّ وضع السعر، فقد ذهبتُ لماكينة الدفع، وكان أمامي شاب وشابة، فوجدتُ أنَّ ما معهم من خضروات عليه السعر، ووجهتُ سؤالًا لهم عن كيفية عمل ذلك، وتحدثتْ الشابة لي بل وذهبتْ معي لقسم الخضروات، وشرحتْ لي الطريقة ثم رحلتْ، وظلّلتُ أفكر أنَّ لو حدث نفس الشيء بمصر، سوف يقوم الشاب بالرد على كل أسئلتي، وقد لا تتحدث الشابة، وسوف اخاطب الشاب، وقد لا أنظر إلى الفتاة، وهذا هو أحد جوهر الاختلافات السلوكية بين الغرب عمومًا والشرق، لا تشعر البنت في الغرب بالتهديد من الشباب، فتتحدث معهم بثقة وحرية، وبالتالي ينشأ شكل أفضل في العلاقة عمَّا هو قائم في الوقت الحالي في المجتمعات الشرقية، وخصوصًا مصر.

كلما زادتْ الثقة بين الأطراف المشاركة في الحياة، كلما زادتْ فرص النجاح، وهذا ينسحب على الصداقة والزواج وعلاقة العمل، والثقة علاقة تراكمية، لذا فمن الصحي بل ومن الواجب أيضًا أنْ يكون التعليم مختلطًا، رغم كل المشاكل المصاحبة لذلك، فهو يحتاج

إلى جهدٍ أكبر في التعامل، ولكنْ يظل السؤال المحير في المجتمع المصري مع كثرة عدد المحجبات والمنتقبات، وعمومًا ملابس المصريات محافظة، تظل مشكلة التحرش الجنسي ظاهرة منتشرة، ومشكلة التحرش لا ترتبط ارتباطًا تلازميًا بما ترتدي المرأة، بل بما يوجد داخل عقل الرجل.

في فترات سابقة بمصر أواخر الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، كانت ترتدي المرأة ما يحلو لها وفقًا للموضة في ذلك الوقت، ولم نكن نسمع عن التعارض الأخلاقي بين ما ترتدي المرأة والأخلاق الحميدة.

في نهاية المطاف يجب أنْ يعتاد الفرد على فكرة الاختلاف، وحين يختلط الفرد بثقافاتٍ جديدة، فهو في حالة تعلُّمٍ دائم، يعرف عن الآخر ويفهم، وقد يقبل أو يرفض سلوك الآخرين، لكنه أبدًا لا يرفض الآخرين.

(٥)

الدنيا مش حلوة غير بالمجانين اللي فيها!

هذا ما قالته سماح أنور في فيلم "امرأة واحدة لا تكفي" وما قالته صحيح جدًا، فجزء من الإبداع والتغيير يكمن في الجنان، بمعنى الخروج عن المألوف أو السائد في وقتٍ ما.

الأخوان رايت The Wright brothers خرجا عن المألوف، وحاولا جاهدين تغيير الواقع، وقد اعتبرهما الكثيرون مجانين، لكنهما لم ييأسا، وقدما للبشرية أهم وسائل النقل.

وينسحب نفس الكلام على الدكتور طه حسين، فلم يقبل الأشياء كما هي، بل تفحَّص وتمحَّص فيها، وراجع وحلَّل كل النصوص والأفكار التي وقعتْ تحت يده، لم يقبل الأمور كما هي، اعتبره الكثيرون مجنونًا، وآخرون زنديقًا كافرًا، والبعض الآخر اعتبره مجنونًا ضلَّ طريقه إلى مستشفي الأمراض العقلية، لكنْ يظل الكثيرون يعتبرونه مناضلًا فذًا، مكافحًا جبارًا، له ما له وعليه ما عليه شأنه شأن معظم العباقرة.

وينسحب الكلام على الكثير من المغامرين، فهؤلاء قد أبهروا العالم إذ اتخذوا طرقًا لم يألفها العالم، ستيف جوبس Steve Jobs (١٩٥٥م - ٢٠١١م) أحد أهم مبتكري العالم iPad- iPod، iPhone، لم يهدف للربح بقدر ما كان الإبداع هو شغله الشاغل،

كان لديه العشق، والعشق قادر على أنْ يحركنا لأماكن لم نألفها، وحين يتحرك الخيال بهذا الشغف والعشق، تتفتح مناطق جديدة قادرة على أنْ تجعلنا أكثر إبداعًا، لقد ترك الجامعة بعد ٦ أشهر، وأحب التاريخ والفن، وباع أوتوبيس فولكس ما كان يمتلكه حتى يبدأ شركة مع وزنياك wozniak الذي باع هو الآخر ما يمتلكه حتى يحققا حلمهما.

حين تفكّر وتستخدم خيالكَ، تفعل كل الأشياء حتى يتسنى لكَ القيام بما تعشقه، والكثيرون أبهرونا عبر التاريخ، لذلك من حقكَ أنْ تعشق حتى الجنون، ويخرج هذا الجنون في صورة إبداع، وهذا الإبداع هو فقط القادر على أنْ يغيِّر وجه الأرض ومجرى التاريخ.

(٦)

أن يثق بكَ الآخرون

حين سافرتُ لأول مرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، كانت لي مشاهدات كثيرة، في ذات مرة ركبتُ المترو، وحين نزلتُ ألقيتُ بالتذكرة في سلة القمامة، وذهبتُ لركوب الأوتوبيس، ووقت انتظاري في محطة الأوتوبيس، سألتُ أحد الواقفين بجانبي عن شراء التذاكر، وقد عَلِمَ أني مصري، وقال لي:

ـ بنفس تذكرة المترو ترتاد الأوتوبيس.

فقلتُ له:

ـ لقد رميتها.

فقال لي ببساطة:

ـ قُلْ للسائق.

ولم أتصور أنَّ هذا ممكنًا، وقلتُ لنفسي:

ـ مش قصة، دولار ونصف، إيه يعني.

بس قلتُ برده:

ـ أجرب.

ثم تحدثتُ إلى السائقة، وقلتُ لها:

ـ أنني رميتُ التذكرة؛ لأنني لا أعلم.

فقالتْ لي:

ـ لا توجد مشكلة.

وذهبتُ أجلس مكاني في حالة استغرابٍ.. كيف صدقتني بتلك السرعة؟! ولم تفتح لي تحقيقًا، وبالمرة تسألني: " هو إنت أبوك بيشتغل إيه، أو بتصيف في الساحل الشمالي ولا في جمصة، أو الموبايل (كارت أو خط)" وغيره من تلك الأسئلة المريبة.

(٧)

نصبٌ في كل مكان

قرَّرتُ أنا وصديق لي "أشرف نجيب" أنْ نسافر تركيا، وقد كانت رحلة شديدة المتعة، وقررنا أنْ نأخذ مركبًا إلى البسفور في رحلة بحرية، وسألنا عن السعر، وقالوا لنا: ٢٠ مليون ليرة.

كان ذلك في عام ٢٠٠٥م حيث مليون ونصف ليرة يساوي دولارًا واحدًا، وعلى هذا فهو يعادل حوالي ١٣ دولارًا، ومن الغريب أنَّ الرحلة كانت قصيرة، ولم نرَ البسفور، وفوجئنا بعودة المركب، وسألنا باقي الركاب، وكان معظمهم من الأتراك، وقالوا: إنَّ المركب ليس متجهًا حتى البسفور.. وشككنا في الأمر، وسألنا أحد الركاب كم دفع؟، فقال لنا: ٣ مليون ليرة، أي ما يعادل ٢ دولار.

وأدركتُ أنا وصديقي إن ده كان نصب، وعليه اتجهنا إلى قائد المركب، وحاول يستعبط ويستهبل، لكننا ذكرنا له كلمة الشرطة عدة مرات باللُّغة الإنجليزية، ومن الواضح أنه فهمها جيدًا، فقام برد المبلغ لنا بالكامل.

النصابون والمحتالون في كل مكان، لكنْ لن يضيع حقٌّ وراءه مُطالب بشرط أنْ تكون الشرطة محترفة، ويختفي أصحاب النفوذ.

(٨)

ومن الخوف ما قتل!

قد يقضي الإنسان حياته ملتحفًا بالخوف من الحالي ومن الآتي، ويصبح في ذاك الوقت موجودًا، لكنه لا يعيش، يوجد اسمًا دون فعلٍ، الخوف يوقف عجلة الحياة، ويدمر خلايا الإبداع، وينهي المستقبل قبل أنْ يبدأ.

في أحد أهم أفلام السينما المصرية "ملك وكتابة" من إخراج كاملة أبو ذكري، يكتشف بطل الفيلم "محمود حميدة" أنه أمضى حياته، واتخذ معظم قراراته بدافع الخوف، كان يخشى من مواجهة الكاميرا، وخاف أنْ يصبح ممثّلًا، فهرب إلى التدريس خوفًا من الفشل، وسمى العلاقة مع زوجته حبًا رغم أنها لم تكن كذلك.

وكثيرًا ما نقوم بأشياء في حياتنا، ونسميها أسماء غير حقيقية كنوعٍ من الحماية للوضع الراهن، وليس إيمانًا منا بما نقوم به.

والمجتمع المصري في كثير من الأحيان مجتمعًا يفرز أشخاصًا تخاف كثيرًا، وتتردد في أنْ تقوم بما تحب، والقصة التالية توجع القلب، وتحير العقل معًا.

طفل في بداية العام الدراسي في ٢٧سبتمبر٢٠١٢م بالمنيا، يلدغه عقرب، وهو في الفصل وخوفًا من بطش المعلّمة، كتم الألم ولم يتكلّم ـ وكثير من أطفالنا في مصرنا العزيزة، تعاني الخوف منذ

الصغر حتى الممات خوفًا من بطش أصحاب السلطة أيًا ما كانت سواء دينية أو سياسية أو اقتصادية ـ ويستمر الطفل في التألُّم حتى كاد الألم يفتك به، فيصرخ ويصرِّح بألمه للمعلّمة، فما كان منها سوى أنها قالتْ له أنْ يذهب لمدير المدرسة.

ولأنَّ الطفل يملأه الخوف، خاف أنْ يذهب إلى الناظر، وظل يهيم بالفناء، وهنا وجده مدرس في فناء المدرسة، وحينما سأله عمَّا أصابه، وقال له، أسرع به إلى المستشفى، لكنه لم يستطع إسعافه لعدم وجود مصل العقرب.

في أي بلدٍ يحترم آدمية البشر، لا يخاف الطفل من أنْ يعبِّر عن ألمه، ويسرع الجميع لإسعافه، مَنْ يتحمل هذا الإهمال الجسيم الذي أنهى حياة طفلٍ، ليس له ذنب سوى أنه وُلِدَ في دولة مقصرة في حماية أطفالها، قادرة فقط على الخطابة.

اللقطة التالية لعائلة مصرية، تعيش بالولايات المتحدة الأمريكية، الابن يلعب بدراجة داخل حديقة المنزل، فيسقط ويصاب بعدة كدمات وتورُّم، ويذهب إلى المدرسة في اليوم التالي، وحين ترى المعلّمة تلك الإصابات تسأله: كيف حدث ذلك؟، فيقول لها: لقد وقعتُ أثناء ركوبي الدراجة.

وتذهب المعلّمة إلى الإدارة المدرسية، وتخبرهم بما حدث، وتخبر الإدارة الشرطة التي تقوم بدورها باصطحاب الطفل إلى منزله، وسؤال الأم عن كيفية حدوث تلك الإصابات، وتقول لهم نفس القصة التي أخبرها لهم الطفل، ثم يسأل الشرطي: هل كان يرتدي

الابن واقي الرأس والكوع والرُّكبة، حين كان يركب الدراجة؟، وترد الأم: لا لم يكن يرتدي أيًّا منها.

وهنا يحذِّرها الشرطي من أنَّ أحد مسئولياتها أنْ تتأكد من أنَّ الطفل يرتدي وسائل الحماية، والاحتياط حتى لا يصاب بأذى، وحذرها بأنه في حال تكرار الأمر ذاته، سوف تقوم الحكومة بسحب الطفل، والقيام برعايته.

والمقارنة سوف تصيبنا بحالة إحباطٍ شديد، فنحن نتكلَّم عن الحياة، ولكنْ لا نحياها، سوف تجد الكثير في كتب القراءة في المدارس المصرية، تتكلَّم عن قيم عظيمة ورائعة، وسوف تكاد تصدِّق حتى تجد هذا التناقض الصارخ بين الواقع وكتب القراءة، وأخشى ما أخشاه أنْ تظل علاقتنا بالواقع هي كتاب القراءة، ووجود وزيري الصحة والتعليم في منصبهما بعد هذا الحادث، هو كارثة حقيقية.

الواقع المصري شديد الخطورة، لكنَّ القائمين على الدولة في حالة انبهارٍ بالسلطة، وسوف يدركون المشاكل فقط حين تحلْ بهم، ومن الأرجح أنهم في حالة من التيه وإنكار المشاكل الحقيقية، وهم مثلهم مثل كتاب القراءة كلام كبير وبس.

(٩)

في عمر الزهور، ولكن..

منظومة القيم في أي مجتمعٍ لا تستقيم ما لم يكن على رأسها الحُرِّية، وفي المجتمع الحُرِّ لا يخاف الأطفال، ولا يُفرض عليهم ملابس بعينها.

في مصرنا العزيزة في ١٧أكتوبر٢٠١٢م سوف يظل تاريخًا يندى له الجبين، سوف تتذكر طفلتين في عمر الزهور: "منى الراوي" و"علا منصور" في التاسعة من عمرهما، أنَّ المعلّمة قامتْ بقص شعرهما لعدم تغطيتهما لرأسيهما، فكيف لتلك المعلّمة أنْ تفرض ما تعتقد هي أنه صواب على الطالبات، سوف تظل الذكرى عالقةً في ذهن الطالبتين لفترة من الزمن، القهر لا يجعل أي منا صحيحًا نفسيًا، وهذه المعلّمة عبثتْ ببراءة الأطفال معتقدة أنَّ هذا أحد أدوارها، وهذه مشكلة أبدية بمصر، فنحن نخلط أشياء لا تجتمع.

ما هو دور المعلّم؟ هو بالأساس دور مهني، ومن خلال تلك المهنية قد تنتقل بعض القيم عن طريق الملاحظة، وخصوصًا في مرحلة الطفولة حيث يكتسب الأطفال القيم والعادات من خلال الملاحظة، وليس من خلال الدور الواعظ، وكثير من المعلّمين في مصر، وحتى أساتذة الجامعات في مصر ينسون الدور المهني، وينزلقون إلى وعظ الطلاب وإملاء آرائهم عليهم.

المهمة الرئيسية للمعلّم هي التعليم، وما يحدث إضافة إلى ذلك، يحدث في سياقاتٍ محددة، وليس بترتيبٍ محدد؛ لنقلْ أنَّ هناك مدرسًا لمادة الفيزياء، لا يمكن أنْ يكون له دور أعظم من التدريس بشكلٍ مهني، ولكنْ ما دفع تلك المعلّمة للقيام بدور حلاق في ثوب معلّمة، هي الحيرة وعدم إدراك الدور المنوط بها القيام به، لها دور أساسي هو التعليم، ولو قامتْ به على خير وجه، ولم تُضع الوقت في توجيه الآخرين إلى صحيح الدين حيث إنه في هذه المرحلة هو دور الأسرة ورجال الدين فقط.

حين تهتم وتنصح الآخرين دون أنْ تكون مدعوًا لذلك، فأنتَ تكسر أهم قواعد الحياة، أنتَ تخترق خصوصية الآخر.

(١٠)

هل تربيت في هذا البلد؟

خلال وقوفي في طابور لمطعم "بيكاديللي" في أتلانتنا Atlanta بولأيَّة جورجياGeorgia الأمريكية، كنتُ أتحدث مع صديقٍ أمريكي "David" ولم ينتبه لمكانه في الطابور، وتقدَّم على شخصٍ آخر، وفجأة ودون مقدمات سمعتُ تلك الجملة:

- "were you raised in this country?"

"هل تربيتَ في هذا البلد؟"

وبالطبع كان يقصد أننا في هذا البلد نحترم الطابور، وتوقعتُ أنْ يتم تراشق لفظي ينتهي بخناقة، ولكنَّ رد فعل ديفيد"David" قد أبهرني إذ تحرك للخلف مسرعًا واعتذر بشدة، وهذا وإنْ دلَّ فهو يدلّل على أنَّ فكرة الذات عند ديفيد وغيره الكثير من الأمريكيين ليستْ متضخمة، ففور إدراك ديفيد لخطئه، لم يعاند أو يكابر بل قام على الفور بالاعتذار، وهذا هو الغرض الرئيسي لتلك الحكاية.

حينما تتضخم الذات يصعب علينا الاعتذار، وقد نخسر الآخرين، وقد يكون لدينا معهم ذكريات وتاريخ طويل، لكنَّ الذات قد تؤدي إلى خسارة الأشياء والأشخاص.

(١١)

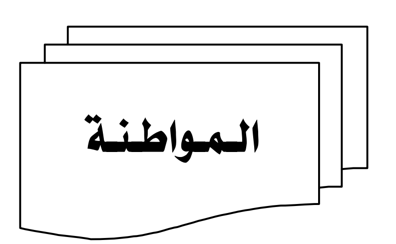
لا للبيروقراطية

قمتُ بزيارة قبرص في عام ٢٠٠٦م، وخلال تجولي بوسط مدينة ليماسول، لفت انتباهي محل للأعمال الخشبية ـ هدايا وتحف ـ وقمتُ بالتحدُّث مع الفتاة عن بعض المعروضات، وهي فتاة إنجليزية، وتبادر لي سؤال، وكان السؤال عن الوقت الذي استغرقته حتى يصرَّح لها بفتح هذا المشروع لكونها أجنبية؟

فقالتْ لي: إنها جاءتْ كسائحة مع صديقها، وأُعجبتْ بالبلد، فقررتْ بدء هذا المشروع الصغير، وكل ما قامتْ به بعد دراسة المشروع، أنها استأجرتْ المحل، وذهبتْ للحصول على التصريح صباحًا، وقامتْ بفتح المحل مساءً.

وكانت الصدمة لي في مدى سهولة الحصول على التصاريح، وإقامة مشاريع بتلك السهولة في بلدٍ صغيرٍ مثل قبرص، وعن مدى الصعوبة وانتشار الرشاوى والتعقيدات البيروقراطية في مصر، وتلك تدمر أي طريقِ يسبر في اتجاه أي نهضة.

الفصل الثالث



(١)

الـمـواطنـة

المواطنة إحدى الكلمات المهمة في التاريخ الحديث، وتكاد تكون أحد أهم مكونات السلام الاجتماعي، والمواطنة الكاملة تكاد تكون نادرة الحدوث في أغلب دول العالم إلَّا فيما ندر.

توجد مشاكل للأكراد في تركيا حتى الآن، وفي حين يدعي أردوغان حرصه على الشعب السوري، تجد كثير من الأكراد يعانون معاناة جمة، ومن الصعب بما كان أنْ تتحدث في مثل هذا الموضوع، ويبدو من المحرمات، ولا تعترف الحكومة التركية بالأكراد كأقلية عِرقية، فاللُّغة الكردية غير معترف بها في تركيا، ويحرُّم على الأكراد ارتداء ملابسهم التقليدية في المدن، ويحدث مثل ذلك مع كثير من الأقليات على مستوى العالم، وحين لا تستطيع أيَّة أقلية الاندماج داخل المجتمع، تتفجر كثير من المشكلات، ومن أحد عوامل نجاح المجتمع الأمريكي الحالي هي فكرة بوتقة الانصهار "melting pot" وهي فكرة انصهار كل العِرقيات والأديان في منظومة قوية قادرة على اجتذاب المواهب من كافة أنحاء العالم، وتكون الأولية للاجتهاد والعمل، وليس للعِرق أو الدين، وقد توجد حالات سلبية يمكن فيها تحطيم فكرة بوتقة الانصهار، لكنْ في نفس الوقت توجد أمثلة بارزة لكثيرٍ من

المبدعين في كافة المجالات، احتضنتهم تلك البوتقة وانصهروا داخلها، وأصبحوا جزءًا منها، وأنتجوا وأبدعوا، وأضافوا الكثير للمجتمع الأمريكي، ويستطيع القيام بمثل ذلك المجتمعات القوية.

فكرة الجميع في بوتقة المواطنة، فكرة بناءة تجمع كل روافد المجتمع الواحد لبناء دولة قوية، يوجد في الولايات المتحدة مسيحيون بروتستانت، كاثوليك، وأرثوذوكس، يهود، هندوسيين، مسلمين شيعة وسُنة، بوذيين وملحدين، ولم نسمع عن مشاكل دينية، فحرية العبادة مكفولة للجميع، وهي لا تعد مشكلة إلّا في المجتمعات البعيدة عن الفكر الحضاري، لن تتقدم امة إلّا إذا شَعُرَ جميع المواطنين بالحُرِّية التامة، عدد المسيحيين في الولايات المتحدة حوالي ٧٩%، وتمارس جميع الطوائف الأخرى العبادة بحرية تامة.

الانتماء للوطن ليس فعل أوتوماتيكي، بل هو حركة متبادلة بين جميع الأطراف المكوِّنة للمجتمع، فالمواطن التركي ذو الأصول الكردية، ليس لدية نفس المشاعر الإيجابية تجاه الوطن، وينسحب الأمر على مواطني الجنوب السوداني قبل الانفصال في ظل التطبيق القسري للشريعة الإسلامية، والتي جعلتْ معظم مواطني الجنوب، والكثير من مواطني الشمال يشعرون بظلمٍ شديد، فالنظام السوداني لم يقدِّم جديدًا سواء طبَّق الشريعة أم لم يطبقها، فالتنمية كانت أبعد ما يكون عن الفكر العام للحكومة السودانية، وهذا ما آلتْ إليه السودان: دولة مقسمة تعاني من نظام تعليمي متخلّف، بعيدة

عن المجتمع الدولي، لا تنتج، أو تبدع، أو تقدِّم إسهامًا عالميًا يُشعر المواطن بالفخر.

ولو نظرنا عبر التاريخ الحديث، لوجدنا أمثلة عديدة تمَّ احتضانها في داخل المجتمع الأمريكي، العالم الدكتور فاروق الباز، دكتور أحمد زويل، دكتور عصام حجي وغيرهم، ونظرة بسيطة على فريق السلة الأمريكي الذي يكون معظمه من أمريكيين من أصل أفريقي، وتستنتج ببساطة من ذلك أنَّ المجتمع الأمريكي مجتمع سريع الحركة، وفكرة الكفاءة تسيطر على معظم أطيافه، فعدد الأمريكيين ذو الأصل الأفريقي حوالي ١٣,٦% وهذا لم يمنع المدرب الأمريكي لكرة السلة أنْ يكون الفريق مكوَّن معظمه من أمريكيين من أصل أفريقي، فالمحك دائمًا وأبدًا هو مدى الجهد المبذول، وليس الأصل أو العِرق أو الدين، قد تظهر من آنٍ لآخر بعض المشاحنات على أساسٍ طائفي أو عنصري، لكنَّ الأساس في بناء المجتمع هو معيار الكفاءة، وتلك هي المعضلة في المجتمعات القبلية المتخلّفة، فالفرد في المجتمع الأمريكي تتغير أوضاعه الاجتماعية والمالية، ويصعد السلَّم الاجتماعي إلى أي مدى طالما بذل الجهد المطلوب.

- **روزة باركس Rosa Parks:**

فقط في عام ١٩٥٥م حينما رفضتْ السيدة "روزة باركس" أمريكية من أصل أفريقي أنْ تتخلى عن مقعدها، وتجلس في المقاعد الخلفية للأوتوبيس حتى يجلس عليه رجل أبيض، وكانت

تلك هي القاعدة في تلك الأيام حيث يتم حجز المقاعد الأمامية للبيض، ويجلس السُّود في الخلف، إذا صعد إلى الأوتوبيس رجل أبيض ولم يجد مكانًا، فمن حقه أنْ يجلس مكان أي رجلٍ أسود على أنْ يجد الأسود مكانًا آخر له، ومَنْ يخالف ذلك كانت الشرطة تقبض عليه، ومن ثمَّ كانت السيدة "روزة باركس Rosa Parks" هي ثاني مَنْ قام بذلك حيث سبقها في ذلك شابة تبلغ من العمر ١٥عامًا "كلوديت كولفين Claudette Colvi" رفضتْ التخلّي عن مقعدها لرجلٍ أبيض، ومن ثمَّ قامتْ حركة مقاطعة وسائل النقل العامة من جانب السُّود، وساعدهم في ذلك بعض البيض مع وجود مضايقات كثيرة من الحكومة، واستمرتْ حركة المقاطعة لمدة ٣٨١ يوم، حتى أصبح من حق السُّود الجلوس في الأوتوبيس على قدم المساواة مع البيض.

المثير في القصة وغيرها من قصص الكفاح ضد العنصرية، هو حركة التغيير السريعة في المجتمع الأمريكي، حيث إنَّ رئيس الولايات المتحدة في ٢٠٠٨م هو بارك أوباما، أمريكي ذو أصولٍ أفريقية، ومن ثمَّ نجد أنَّ الوضع في البلاد القبلية في غاية التعقيد، إذ يتحكم الدين أو الجنس أو العِرق في مصير الفرد مدى الحياة، فهل يستطيع كردي أنْ يصبح رئيسًا لدولة تركيا مثلًا؟ وهذا يحد الفرد في إطار جنسه أو دينه أو عِرقه، وليس الجهد والكفاءة.

حين تصبح الكفاءة هي المحك والأساس، ويصبح كل المواطنين سواء، سوف يصبح المجتمع أكثر نضجًا، وأكثر قدرة على استيعاب كافة الأطياف، وسوف تزيد روح الانتماء.

- **الحقوق والانتماء: "مارتن لوثر كينج" و "غاندي" :**

الانتماء للوطن ليس أمرًا مسلَّمًا به، فهو ليس بالأمر الرومانسي المثالي، حين تضطهد أقلية إما بسبب الدين، العِرق، أو الانتماء السياسي، فحتمًا ستغيب فكرة الانتماء عن المشهد، وسيصبح الأكثر وضوحًا التفكير في الهجرة، أو كراهية الحياة، أو المقاومة الإيجابية.

مارتن لوثر كينجMartin Luther King (١٩٢٩م - ١٩٦٨م) أحد أهم رموز المقاومة في المقاومة الإيجابية متبعًا نهج مثله الأعلى غاندي، فهو مهندس فكرة المقاومة باستخدام (اللاعنف) وهي من أعظم الفلسفات في العصر الحديث، إذ تركّز على حق الإنسان في المقاومة دونما أنْ يفقد إنسانيته، فأنتَ تطالب بحقكَ في الحياة، ففكرة العنف والقتل لا يجب أنْ تكون جزءًا من الآليات المستخدمة.

أنتَ تطالب بالحُرِّية لكي تعيش، وقد نادى مارتن لوثر بمحبة إخوته في الوطن بغض النظر عن اللون والدين والعِرق، وبهذا لاقتْ دعوته قبولًا من كثيرٍ من البيض، وهذا يكرِّس فكرة قبول الآخر، فقد دعى مارتن لوثر لقبول الآخرين رغم الظلم البيِّن للسُّود في هذا الوقت، وبهذا تمَّ إنجاز تاريخي لم يتصوره عقل.

فكلما تساوى الجميع في الحقوق، وأصبح العدل أمرًا نافذًا واضحًا لا تخطئه عين، ومن ثمَّ تصبح فكرة المواطنة قابلة للتحقيق، لن تتحقق فكرة المواطنة بمعزلٍ عن فكرة العدالة، ففكرة انفصال

الأقليات هي بالأساس خطأ الأغلبية، حين تشعر الأقلية بالظلم في الوظائف والامتيازات مهما كانت، يستحيل مع هذا الوضع تطبيق المواطنة كمبدأ حياتي مجتمعي.

الأمثلة كثيرة عبر التاريخ وممتدة، جنوب السودان ودارفور، الأكراد بسوريا والعراق وتركيا، أهالي سيناء، النوبيين، الشيعة في أفغانستان، الشيعة في السعودية، البهائيين في مصر، وكثير من الأمثلة في كافة أنحاء العالم.

فقط حين يشعر المواطن بأنه مثله مثل أي مواطنٍ آخر مهما اختلفتْ الأعراق، الأديان أو اللغات.

يتحدث السويسريون الفرنسية والألمانية والإيطالية، وجميع المواطنين السويسريين يطبق عليهم نفس القانون، ويشعر كل مواطن أنَّ لديه نفس الحقوق، وهنا تتبلور فكرة الانتماء الحقيقي.

نستطيع بناء دولة فقط، حين يتساوى الجميع في الحقوق والواجبات، ويسود القانون.

- **الانتماء العاطفي:**

المصريون يمتازون بالعاطفة القوية، ومعظمهم يحبون مصر بشدة، وهو انتماء عاطفي بالدرجة الأولى، فالجميع في هذا الإطار ينتمي إلى الأهل والأحباب أكثر ما ينتمي إلى قيم مواطنة حقيقية، ففكرة الحُرِّية التي لم وربما لن تتحقق في المجتمع المصري في القريب العاجل، ومبادئ العدالة والمساواة ربما لم يشعر بهما المواطن العادي، وذلك لتغلل فكر الوساطة والشللية وأحيانًا الطائفية.

في حوارٍ لي مع صديقٍ صيدلي مهاجرًا إلى كندا، وكانت أحواله المالية جيدة، وكان السؤال التقليدي:

ـ لماذا تهاجر؟

وكانت الإجابة غير تقليدية:

ـ أريد أنْ أعيش متساويًا مع الآخرين مهما اختلف المستوى الاجتماعي أو المالي.

ففكرة المساواة فكرة شديدة الجدية، يسعى نحوها الجادون سعيًا حثيثًا، فهي تخلق مجتمعًا صحيًا.

كيف يشعر البهائي المصري حين يجد بطاقته الشخصية مختلفة عن شركاء الوطن الواحد بسبب عقيدته التي لا تعترف بها الدولة، فيكتب بجانب بند الديانة شرطة (-) فهل هذه هي البهائية بناءً على تعليمات الحكومة المصرية إبان عصر مبارك، وماذا سوف يضير الدولة حين يكتب بجانب الديانة للشخص البهائي (بهائي) ليس من حقِّ الدولة مهما كانت الأغلبية السياسية الحاكمة أنْ تبدي رأيها فيما يخص عقيدة المواطن، فهذا أمر يخصه وحده، وينطبق نفس الحال على الشيعة المصريين والملحدين أيضًا، وعددهم بالطبع مجهول.

مسئولية الدولة أنْ تقف على مسافة واحدة من جميع المواطنين، الدولة كيان اعتباري، وليستْ مشخصنة، وكلما ازداد حياد الدولة، كلما ازداد الانتماء، كلما شَعُرَ المواطن بالعدالة، كلما عَشِقَ المكان المنتمي إليه، واقترب الانتماء العاطفي من الانتماء العقلي المنطقي المسبَّب، فنحن ننتمي بالأكثر للأفكار العليا وليس للأشخاص.

تهميش النوبيين والسيناويين في مصر هو أمر شديد الوضوح، قسر المناصب القيادية الحساسة على المسلمين، وإعطاء الأقلية المسيحية بعض المناصب كنوعٍ من الترضية أيضًا أمر شديد الوضوح، فلابد أنْ نعمل على خلق ثقافة جديدة في المجتمع المصري، ثقافة تعلي من شأن المواطنة والمهنية، فالوظيفة مهما كانت هامة وحساسة فلابد أنْ يشغلها الشخص الأكثر كفاءة، ولكنَّ لعبة التوازنات لا تخلق مجتمعًا صحيحًا أو صحيًا.

ولن تشعر أيَّة أقلية في جميع أنحاء العالم بالانتماء إلَّا إذا أصبحوا جزءًا من مجتمعهم، والانتماء ليس حالة عاطفية بحتة، العاطفة مكون أساسي للانتماء، ولكنْ لابد من وجود روابط قيمية مهما اختلفتْ المذاهب والعقائد والأصول، يظل المجتمع متفقًا على قيم أساسية لا يختلف عليها، وهي قيم المواطنة، العدالة، المساواة والحُرِّية، والفرص المتساوية.

- **كارل براشير Carl Brashear 1931- 2006:**

التحق كارل بالبحرية الأمريكية عام ١٩٤٨م وتخرج كأول غطاس إفريقي أمريكي ١٩٥٤م، وقد تمَّ تهديده كثيرًا من زملائه البيض، ووصلتْ حتى تهديدات بالقتل، لكنَّ ذلك لم يثنيه عن عزمه، فقد أصدرتْ الحكومة الأمريكية قرارًا بإلغاء الفصل بين الأجناس، لكنَّ البيض لم يستوعبوا الرسالة، وهذا ما دفعهم إلى معاملته معاملة سيئة للغاية، لكنه أكمل المشوار حيث الهدف واضح نُصب عينيه، وقد فقد ساقه عام ١٩٦٦م في حادثة بالومارس Palomares

incidient، ومن ثمَّ فقد استخدم ساق صناعي، وقام بالتدريب وإعادة التأهيل حتى عام ١٩٦٧م، ثم عَمِلَ في مدرسة البحرية حتى عام ١٩٦٨م، ثم أصبح أول غطاس أمريكي ذي رجل صناعية، وفي عام ١٩٧٠م أصبح أول إفريقي أمريكي يصبح رئيسًا للغطاسين Master diver.

وقصة كارل براشير ما هي سوى درس قاسي لكل الكسالى المتحججين بكافة الحجج.

التمييز ضد الأقليات آفة الكثير من الحضارات والشعوب، وهي تكرس لوضعٍ غير طبيعي أو منطقي، لكنْ في نفس ذات الوقت لا يوجد ذريعة منطقية للتكاسل، فالعوائق كثيرة ومتنوعة، لكنَّ الحياة قصيرة وممتعة، والمتعة الكبرى هي كسر القيود مثل كارل وغيره الكثير.

يقول كارل: " ليستْ الخطيئة أنْ تسقط بل أنْ تظل قابعًا".

والمجتمعات التي تتسم بتمييز فئة عن أخرى، هي تجابه مشكلات دائمة سواء على المدى القريب أو البعيد، فبناء مجتمع قوي ليس بالأمر الهين أو البسيط، وتتسم الثقافة المهيمنة، وهي غالبًا للأكثر عددًا مع وضع الاستثناءات في الاعتبار.

الغالبية في البحرين من الشيعة أما الحكم سني، وفي سوريا الحكم علوي والأكثرية سنية.

والأمثلة كثيرة ومتنوعة في كافة الاتجاهات.

▪ خصائص فكر المواطنة

جميع المواطنين أمام القانون سواء، فكرة شبكة العلاقات تنمحي مع سيادة القانون، القانون يطبق على الجميع، لا يوضع في الاعتبار اللون أو الدين أو الانتماء لجماعة بعينها، ومن ثمَّ يشعر المواطن بالانتماء، وتكاد تختفي فكرة الهجرة، فكرة العدالة تربط الناس بالأرض أكثر من أيَّة فكرة أخرى.

التمييز على أساس الدين، أو العِرق، أو اللون، أو اللُّغة يعيق فكرة المواطنة، لذا فجميع الدول التي تتبنى فكر المواطنة كأساس لبناء الدولة وتكوينها، نجد إجراءاتٍ صارمة ضد أي شكلٍ من أشكال التمييز، ولن تجد في هذه الدول خانة للديانة.

فكر المواطنة فكر غير تمييزي، يخلق مواطن ينتمي للدولة، وليس لجماعة بعينها داخل الدولة سواء كانت تلك الجماعة سياسية أو عِرقية أو دينية، ومن الكوارث الكبرى أنْ يشعر النوبي أنه ليس مرحبًا به في وطنه مثل الآخرين، أو الشيعي، أو المسيحي، أو غير ديني.

في فكر المواطنة المناصب العليا ليستْ حكرًا على فئة بعينها، ومن الممكن للمواطن المجتهد أنْ يقوم بما يصبو إليه في جميع الأحوال، في تلك المجتمعات يصبح الجهد هو العامل الرئيسي في التقدُّم للمرتبات الأعلى.

▪ المعايير المكوِّنة لفكر المواطنة

١ ـ مكان الميلاد معيار اكتساب المواطنة:

ويعني ذلك أنَّ الإنسان بغض النظر عن أيَّة اعتبارات أخرى، فقط لأنكَ ولدتَ في هذا الوطن، فأنتَ مواطن درجة أولى.

٢ ـ جميع المواطنين متساوون أمام القانون:

القانون يطبق على الجميع بنفس الكيفية، ولا توجد مراكز قوة ولا امتيازات لفئة عن أخرى.

في حوارٍ لي مع صديقٍ صيدلي قرر الهجرة إلى كندا، إنَّ أسباب الهجرة لديه ليس لها علاقة بالظروف المادية، ولكنه شَعُرَ في كندا حين زارها أنَّ الجميع أمام القانون سواء، ومع صديقة فلسطينية كانت قد زارتْ كندا حين كنا زملاء بالجامعة، وقالتْ لي إنَّ ما أثَّر فيها حقًا هو طريقة التعامل، وقالت: شعرتُ بأنني إنسانة أكثر.

وهذا يفسِّر مدى قدرة الكثيرين على التعايش في مجتمعاتٍ جديدة، وترك المجتمع الذي قضوا به فترة طويلة من عمرهم.

٣ـ إنمائي:

فكر المواطنة فكر إنمائي في الأساس، يتجه صوب التنمية من كل اتجاه، لا يعنى بشيءٍ سوى الجهد المبذول من أجل الوصول للقمة.

ترحب كندا واستراليا بكثيرٍ من المهاجرين من مختلف الجنسيات شريطة أنْ يكونوا إضافة تنموية عاملة لتلك البلاد، وجذبتْ الولايات المتحدة الأمريكية كثيرًا من العباقرة، وأصبحوا مساهمون بشكلٍ فعال في بناء الحضارة الأمريكية، وذلك عكس مصر تمامًا التي يصعب على كثيرٍ من العلماء البقاء فيها، وذلك لكثيرٍ من الأسباب، من أبرزها: ضعف المقابل المادي، وضعف الإمكانات المادية التي تساعد في البحث العلمي، فبينما يكثف ويركّز العلماء في الغرب الوقت والجهد في البحث العلمي، يظل العالم المصري في حالة بحث دائم عن لقمة العيش، والباحثون عن الحقيقة والراغبون في التنمية المستدامة غالبًا ما لا يتمكنون من العيش في العالم الثالث، حيث يصبح العلم هو شغلهم الشاغل، وبالتالي يصبح وطنهم عبئًا حين ينبغي أنْ يكون أحد العوامل المساعدة.

٤ـ الوطن هو القيمة العليا:

يصبح الوطن قادرًا أنْ يجعلكَ مدفوعًا إلى محبته منذ نعومة الأظافر، فكل ما في الوطن لا يجعلكَ تشعر بالغربة، يصبح الوطن هو الطاقة الجامعة، قد يختلف المواطنون في الخلفيات الثقافية، العِرقية والدينية، لكنْ يظل الجميع منتميًا للوطن الواحد.

في مصر يوجد مسلمون سُنة، مسيحيون أرثوذوكس، بروتستانت، وكاثوليك، بهائيون، وقليل من الشيعة، ويوجد أيضًا بعض غير دينيين، ولابد أنْ لا يؤثر ذلك بأي حالٍ من الأحوال على الانتماء لمصر، فالجميع مصري الانتماء، ويدين بما يحلو له بعد ذلك، حين

تتدخل الهوية الوطنية مع الهوية الدينية، يصبح الأقليات عرضة للمعاملة كمواطنين أقل أهمية، إنْ لم يكن من الدرجة الثانية، ويتطلب ذلك كثير من الوعي والتغيير.

أول رئيس غير بروتستانتي للولايات المتحدة الأمريكية، هو جون ف كينيدي (John F Kennedy) (٢٠يناير١٩٦١م حتى اغتياله في ٢٢نوفمبر١٩٦٣م) وهو أول رئيس كاثوليكي، ثم جاء أوباما عام ٢٠٠٨م كأول رئيس أمريكي من أصل إفريقي للولايات المتحدة، وهذا يفسر عملية التغيير على المستوى الشعبي والثقافي.

نوبار باشا (١٨٢٥م ـ ١٨٩٩م) هو أول رئيس وزراء أرمني مسيحي في مصر في عهد محمد علي باشا، ولم يكن هذا بسبب التسامح الديني أو قبول الآخر إبان تلك الأيام، وإنما لوجود حاكم قوي صارم مثل محمد علي، كان يضع النجاح قبل أي شيءٍ آخر نُصب عينيه.

٥ـ غير إقصائي:

المجتمع المبني على قيم المواطنة لا يقصي مواطنيه، فهو يزيد من الاندماج بين مواطنيه، ولا ينمو داخله مجتمعات منعزلة، فلا يوجد داخله "Ghettos" الجيتو هو تجمع لمجموعة من المواطنين لهم نفس العقيدة والعِرق، ويكونوا بمعزلٍ عن بقية المجتمع، وهنا توجد مشكلة ثلاثية العوامل.

ـ العامل الأول: الجهات التنفيذية والتشريعية

في نظري هذا هو العامل الأكثر أهمية، وينطوي تحت العامل الأول السلطة التنفيذية والتشريعية، ولابد من أنْ يساعدا في اندماج كافة عناصر المجتمع، ولا يسمحون بخلق أيَّة أنواع من الجيتو، فقد تظهر مناطق الجيتو، حين لا تستطيع الدولة القيام بواجباتها على نحوٍ، يُشعر كافة المواطنين بأنهم أمام القانون سواء، لابد من وجود تشريع ومشرعين يعلُّون من قيم المواطنة.

وبمصر كثير من التكوينات الجيتية، فالمجتمع المسيحي مازال غير مندمجٍ بالقدر الكافي، وإذا نظرنا للشيعة في مصر والبهائيين سوف نجد أنهم أسوأ حالًا من بقية الأقليات.

ـ العامل الثاني: الأغلبية

لا بد وأنْ تعلم الأغلبية أنها أحد أهم مصادر الاندماج، ولا بد أنْ يعملوا جاهدين حتى يساعدوا الأقليات أنْ تصبح جزءًا من المنظومة المتكاملة للمجتمع.

ـ العامل الثالث: الأقليات

لا بد أنْ تعمل الأقليات على الاندماج بشتى الطرق، عليهم الإسهام في كافة مناحي الحياة، والمطالبة بالاندماج عملًا وجهدًا، وليس نحيبًا وعويلًا، سكن المسيحيون في الكنائس كثيرًا، طالبوا بحقوقهم في الجلسات الخاصة ومع أصدقائهم المسلمين في المقاهي، وقد بدءوا العمل الجاد بعد أحداث كنيسة القديسين، وخرجتْ الأصوات للشارع، وارتفع الصوت الهادئ، وهي خطوة لابد من تطويرها،

وضم كل أطياف المجتمع لها؛ لأنها بالأساس قضية وطنية، وليستْ فقط مشكلة مسيحية.

حين يصل المجتمع المصري لمرحلة أنْ يدافع المواطنون عن حقوق بعضهم البعض بصرف النظر عن اختلاف العقيدة أو العِرق أو المذهب، فهذا يخلق ترابطًا وتماسكًا اجتماعيًا شديد الأهمية، وتصبح بذلك قضية أيَّة أقلية هي بالأساس قضية وطنية.

٦ـ للفرد قيمة عليا في مجتمع المواطنة:

في المجتمعات القبلية للجماعة التي ينتمي إليها الفرد قيمة أكبر من الفرد، وتتحدد قيمة الفرد بناءً على القيمة الفعلية للجماعة التي ينتمي إليها، أما في المجتمعات التي تعلِّي قيمة المواطنة، فالفرد في حد ذاته هو القيمة الأساسية، وتزداد أهمية الفرد كلما أنجز، والسلَّم الاجتماعي قائم يعطيكَ فرصة الصعود، وكلما اجتهد الفرد كلما ارتقى أعلى الوظائف وأهمها، أما في المجتمع القبلي فالجماعة تحدد قيمة الفرد.

٧ـ الحُرِّية حجر أساس المواطنة:

لا تنمو حضارة في غياب الحُرِّية، كلما زادتْ الحُرِّية الفردية، كلما استطاع الفرد أنْ يسعد بحياته بالطريقة التي باتتْ تروق له مهما اختلفتْ عن السائد، فما يحدد نهوض أيَّة امة هو مدى الحُرِّية المتاحة في المجتمع، وكلما تساوى جميع الأفراد، واستمتعوا بنفس

الحريات على أساس المواطنة، كلما شق التقدُّم الطريق في كل مكان.

دائمًا أبدًا يعاني المسيحيون عند بناء دور العبادة، وهذا أمر عجيب، ويقلّل من فكرة المواطن غير القادر على بناء دار عبادة بحرية مثله مثل المواطن المسلّم، وبالتالي سوف يشعر بغياب جزئي للحرية، وسوف تقل إنْ آجلًا أم عاجلًا درجة الانتماء، وسوف ينسحب نفس الشيء على المواطن المسلّم غير القادر على نشر مقالًا له في جريدة ما، ويتم رفض المقال بتعليمات أمنية، وهنا ورغم أنَّ هذا المواطن ينتمي للأغلبية العددية إلّا أنه لا يشعر بأنه مواطن ذو أهلية وكامل الحقوق، أو لنقلْ مواطن مصري لم يتم تعيينه في الجامعة بدرجة معيد، وذلك بسبب الدين، أو الطبقة الاجتماعية، أو حتى اللون، فيشعر المسيحي بغياب المواطنة، ويشعر المسلّم أحيانًا بغياب المواطنة، ويصبح في هذه الحالة غياب متعدد المستويات لفكرة المواطنة، وينسحب هذا الكلام على البهائيين والشيعة واللا دينيين.

٨ـ مسافة واحدة:

في الدول التي تدعم فكرة المواطنة، تقف الدولة على مسافة واحدة من كافة العِرقيات والمعتقدات، ليس للدولة عقيدة، الدولة كيان اعتباري، الأفراد لديهم عقيدة وعلى الدولة أنْ تتيح لهم الحُرِّية في إقامة دور العبادة، وممارسة شعائرهم في إطار قانون منظّم لبناء

دور العبادة، وهنا لا ينبغي على الدولة أنْ تتحيز لفصيلٍ على آخر، فذلك يزيد الاحتقان والفجوة بين فصائل المجتمع المختلفة.

٩ـ منفتح على العالم:

فكر المواطنة لا يغذي فكرة الانغلاق على الأهل والقبيلة والعشيرة، والفرد في مجتمع مبني على المواطنة منفتح على الثقافات الأخرى، ويتعامل مع الآخر ليس بحسب انتمائه لعِرقٍ أو دينٍ ما، إنما يتعامل مع الفرد فقط كفرد، وهنا تزيد مساحات التعرُّف على الآخر في إطار من فرديته، وليس في إطار جماعته، الذي يعيش في ثقافة المواطنة لن يعتبر كل المسلمين اسامة بن لادن، ولن يتعامل مع الغربيين على أساس أنهم استعماريون، سوف يفرق بين الفرد وما هو شائع عن تلك الثقافة.

١٠ـ كل المناصب متاحة:

في مجتمع يغذي فكر المواطنة، تغيب التربيطات والشللية وشبكات المصالح إلى حدٍ كبير؛ ليحل محلها الإتقان والموهبة.

مهندس هاني عازر مصمم محطة قطارات برلين، لم يقم بحسب أصله المصري بل بحسب مقدرته على القيام بمهامه، والكلام ينسحب على د/ زويل، ود/ فاروق الباز، ود/ عصام حجي، ود/ مجدي يعقوب.

في مجتمع المواطنة الكل مدعوٍ أنْ يعمل ويطمح، ولا توجد حدود لطموحكَ، أنتَ مواطن؛ لأنكَ ولدتَ في هذا البلد، ليس بالضرورة أنْ تنتمي لعائلةٍ ما، أو لقبيلةٍ ما، أو لمجتمعٍ ما حتى تأخذ فرصتكَ.

المرشح الرئاسي في انتخابات الولايات المتحدة الأمريكية "ميت رومنيMitt Romney" ينتمي إلى المورمين، وهم لا يمثّلون أكثر من ٢% من عدد السكان في أمريكا، ومن قبله باراك أوباما المنتمي للأمريكيين من أصل إفريقي، وهم لا يمثّلون أكثر من ١٣% من عدد السكان، ولكنَّ قصة المواطنة أصبحتْ لا تتحدث سوى عن الإنجاز، ما تستطيع القيام به، ويعمُّ بالفائدة على المجتمع الذي تحيا فيه.

في مصر توجد توازنات لها علاقة بالأغلبية والأقلية، الغني والفقير، والأكفاء غالبًا ما يجدون مشقة شديدة في الحصول على فرصة تتيح لهم التقدُّم نحو ما يصبون إليه، ويحاول الآخرون دائمًا تحجيم دور الشخص، وتصعد في إطار محدد لكَ سلفًا، وبالطبع توجد استثناءات، لكنَّ القاعدة دائمًا وأبدًا أنكَ توضع في إطار جماعتكَ، لا يمكن بأي حالٍ من الأحوال على المستوى الفردي أنْ يفوز الرئيس المعزول محمد مرسي بانتخابات الرئاسة في مصر إلَّا إذا كان ينتمي لجماعة الإخوان المسلمين، فمقارنة بين تاريخه السياسي والمهني مع د/ محمد البرادعي، أو السيد عمرو موسى، أو السيد حمدين صباحي، أو السيد منصور حسن، أو الفريق شفيق لم تكن أبدًا في صالحه، وقد أصبح مرسي رئيسًا على أسسٍ غير

مهنية، لا ترتبط بمدى الكفاءة عنده، وأدى ذلك إلى نتائج باهظة التكاليف.

فقط انتماؤه لتلك الجماعة غير الديمقراطية من حيث التكوين، أتاح له فرصة حكم مصر لمدة عامٍ كامل، وقد قامتْ جماعته بتبرير كل أفعاله، وتلك هي آفة التفكير القبلي الحزبي، المبني على تدعيم فريقكَ أو حزبكَ أو عشيرتكَ سواء كان هذا التدعيم عن صوابٍ أم عن خطإٍ، ويقوم بالتبرير في كل الأحوال، ويأخذ دور المدافع المستميت، وينسى فكرة التحليل الموضوعي.

حين يتخلى الفرد عن القبلية والحزبية، ويرى الصورة بوضوح، فيقترب أكثر من فكرة العدل التي قد تقوده إلى الحقيقة.

▪ مخاطر غياب فكر المواطنة

إنَّ غياب المواطنة كقيمة مجتمعية أساسية، وحجر زاوية لبناء مجتمع صحي، هو أمر كارثي في حد ذاته، وغياب المواطنة يساعد على إنشاء مجتمع مبني على الطائفية أو العِرقية، وهذا مجتمع هش قابل للكسر، وقنبلة موقوتة قد تندلع مع وجود أي تهديدٍ خارجي، وتتفاقم المشاكل العِرقية والدينية فقط حين تشعر أيَّة أقلية بأنَّ دورهم بلا أهمية، وحقوقهم مهدرة، لن تكسب الدولة ولاء مواطن إذا كان مهدر الحقوق، المشاكل واضحة وغائبة، معلنة ومستترة، المشاكل قد تتفاقم بأيَّة لحظة في لبنان، تركيا، البحرين،

الكويت ومصر، ودول أخرى كثيرة، وكلٌّ ذي مشاكل متنوعة ومختلفة، ولن تتعجب حين تجد أنَّ كثيرًا من الجنسيات المختلفة تعايشتْ، واندمجتْ في استراليا وكندا والولايات المتحدة الأمريكية بل ويشعرون بالفخر كونهم ينتمون لتلك الأوطان الجديدة، فحكومات تلك الدول تسعى سعيًا حثيثًا نحو النجاح والنهضة، ولن تتحقق نهضة سوى بتضافر الجهود من كافة الأطياف المكوِّنة لمجتمعٍ ما في مكانٍ ما، وسوف نجد تلك المجتمعات التي تعلّي قيمة المواطنة تركّز على المواهب والجهد البشري، وكلما زاد ذلك كلما نهضتْ الدول، أما التحزُّب فلن يخلق أبدًا دولة كبرى.

فقط علينا، ونحن نفكّر في مدى خطورة غياب فكرة المواطنة أنْ نعرف عدد العلماء العرب في أوروبا وأمريكا وكندا، ونتصور للحظات لو استخدمتْ تلك الطاقات العظيمة في العالم العربي، قد كنا نعيش الآن في عالمٍ مختلف.

يتحمل معظم الحكام العرب حتى هذه اللحظة غياب التطور الاجتماعي، وتغلغل الفكر الطائفي التمييزي .

▪ كيفية التحول لفكر المواطنة

لن يتحول مجتمع إلى فكر المواطنة، وإنهاء حالات التحزُّب والقبلية بين ليلةٍ وضحاها، فتلك عملية طويلة ومعقدة، وقد استغرقتْ الكثير في معظم الثقافات.

- **أهم العوامل المساعدة في التغيير:**

١ـ المهنية:

الشخص المهني دائمًا ما يركز على روعة الأداء والحرفية، ويمتدحهما، وفي الغالب الأعم لا يركز كثيرًا على التفاصيل القبلية والعِرقية، وكثير من لاعبي الكرة في العالم مثلّهم الأعلى هو "ميسي" ويركزون فقط على تلك الموهبة غير العادية، ولا يلتفتوا كثيرًا للتفاصيل الثقافية المرتبطة بميسي، والكلام ينسحب على مواهب كثيرة بالنسبة للكثيرين على مستوى العالم، مثل: ماري كوري، بيل جيتس Bill Gates، ستيف جوSteve Jobs ، زهي حديد المعمارية العراقية الكندية، رمزي يسي عازف البيانو المصري العالمي، مهاتير محمد رائد نهضة ماليزيا، وغيرهم الكثير من كافة أنحاء العالم.

القضية هنا أنَّ الإنجاز عامل قوي في تغيير الواقع نحو الأفضل.

٢ـ العدالة:

كلما شَعُرَ الإنسان بالعدالة، كلما زاد انتمائه للمكان الذي يعيش فيه، يحتاج الفرد أنْ يشعر أنَّ القوانين تطبق على الجميع بنفس الكيفية بصرف النظر عن أيَّة عوامل أخرى.

٣ـ الرغبة الحقيقية في التغيير:

فقط غير القادرين والكسالى وأصحاب المصالح، هم المقاومون للتغيير، التغيير يحتاج أشخاصًا تحاول دائمًا تغيير الواقع نحو

الأفضل، الكسول لا يرغب في التغيير لأن ذلك سوف يتبعه مشقة وجهد وهو في حالة راحة وكسل واستفادة من الوضع الراهن، لن يهتم بالتغيير هؤلاء المستفيدون، فقط هم يحاولون تعطيل التغيير، الرغبة تأتي من فكرة عدم الرضا بالواقع كما هو، ولهذا يحاول البعض التغيير، ويحاول البعض الآخر إبقاء الوضع على ما هو عليه، يوجد صراع حقيقي دائم بين القوى المستفيدة والقوى الراغبة في التغيير.

▪ استخدام آليات التحول لفكر المواطنة

لا يحدث أي شيءٍ في تلك الحياة بين ليلةٍ وضحاها، أي نشاطٍ نقوم به يحتاج دائمًا لرأس مال، ثم كيفية إدارة رأس المال، ورأس المال لأي دولة هو الشعب، وكيفية إدارة رأس المال هي مسئولية الجهات التنفيذية بالأساس.

أ - التعليم:

أهم الآليات في بناء المواطن هي التعليم، لابد أنْ يساعد التعليم في التأكيد على أهمية كل فردٍ في المجتمع، ولابد من تقدير كل مَنْ ساهم في تاريخ الوطن وبناءه، ومن المثير للحزن والغضب في آنٍ واحد، هي المحاولات المستمرة لتهميش كثير من البارعين والعباقرة، بل والعمل أحيانًا على إبعادهم.

لا يجب تمييز أفراد عن أفراد، ودائمًا وأبدًا الوطن هو الجامع لكل القوى والقدرات، وحين تهيمن الأغلبية على كتابة التاريخ وفقًا لمصالحها وفقط، تُظهر الجانب المضيء في حضارتها، يحدث خللًا كبيرًا في بناء المواطن، وتشعر الأقليات بالتُّهميش، وقد يحدث نوعًا من الصدع في العلاقة.
إظهار احترام وتقدير لكافة الثقافات، وبناء تعليم يؤكد ويمارس التفكير النقدي، سوف يظل عاملًا هامًا في ظهور فكر المواطنة الذي يحترم، ويقدِّر كافة الأفراد بنفس القدر ونفس الكيفية.

- **التفكير النقدي:**

التفكير النقدي هو الأب الشرعي للإبداع، ويعتمد التفكير النقدي على الآتي: ملاحظة كل شيء، وعدم قبول المعلومات والأفكار كحقائق غير قابلة للنقاش.

استخدام التفكير النقدي يعني استخدام كل المعلومات المتاحة، وملاحظة كل الظواهر، والتعرُّض لظواهر أخرى حتى يتمكن الفرد من المقارنة، وهي جزء من عملية التفكير النقدي، ومن ثمَّ يستطيع الوصول لقرارٍ قريب من الصحة.

وفي جميع الأحوال يجب تجريب تلك الأفكار في البيئة المحيطة، ومعرفة مدى نفعها، ومن ثمَّ فِهم أحد خصائص التفكير النقدي، وهي المرونة في التعامل مع الواقع، وذلك من خلال عملية تغيير مستمرة مرتبطة بتغيير الواقع السريع من حولنا على كافة المستويات، وكافة الأصعدة.

مثلًا حين تقرِّر أنْ تصلح حال التعليم المصري، ومن المعروف أنَّ خريجي المدارس والجامعات المصرية، يبذلون جهودًا ضخمة وهائلة، ومع ذلك كثير من حديثي التخرج، يفتقدون كثيرًا من المهارات العملية التي تمكنهم من الحصول على وظيفة جيدة.
ومن ثمَّ يجب ملاحظة، وتفنيد كل عوامل التعليم، ومقارنة ما يحدث في المدارس المصرية مع دول متقدمة علميًا، مثل: اليابان، كوريا الجنوبية، كندا، ألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية، ومن ثمَّ نقف على ما نحن فيه، ونبدأ في انتقاده ومعرفة كافة نواقصه، ومن ثمَّ نتعامل مع مشاكلنا الحالية في محاولة جادة للحاق بركب الحضارة، لن تستطيع إصلاح الحاضر إلَّا من خلال فِهم الواقع الحالي عن طريق مقارنة ما ينتجه مع ما ينتجه نظام تعليمي مثل النظام الياباني، ومن ثمَّ نعرف حجمنا الحقيقي، ونعمل جاهدين على تغييره نحو واقعٍ أفضل من خلال استخدام الآليات المناسبة.

كثيرًا ما تحدث مشاكل بسبب بناء كنيسة، أو تحوُّل شخص إلى الإسلام أو المسيحية، ويجب استخدام التفكير النقدي هنا بنفس الآلية، تحليل كل العوامل التي تؤدي إلى تلك المشاكل، وهي متعددة، من ضمنها: حال التعليم المصري، عدم معرفة الكثير عن المسيحية، عدم وجود تقدير للفكر المسيحي، والحضارة المسيحية في الكتب الدراسية، والمشكلة الاقتصادية لها دور كبير في هذه المشاكل، إذ لم نسمع عن مشكلة بين مسيحيين ومسلمين في مناطق راقية، فمعظم المشاكل منذ أحداث الزاوية الحمرا وما قبلها، وقعتْ في أماكن تعاني من مشاكل اقتصادية شديدة.

بعض القنوات الدينية تثير كثير من القلاقل وتزيد الاحتقان، فلابد من التعامل مع كل العوامل التي تؤدي إلى حدوث الظاهرة.

وهنا أيضًا يجب مقارنة تلك المشكلة مع دول أخرى، كانت لديها نفس المشكلة واستطاعت حلها، ومحاولة فِهم الواقع الآخر بعمق وتحليل كل العوامل، ومن ثمَّ نستطيع أنْ نستخدم بعضًا من الآليات التي نجحتْ وتتناسب مع طبيعة الشعب المصري.

ب- ازدهار الفنون:

الفن هو روح الحياة، وحين تزدهر الفنون يصحب ذلك تأثيرًا عظيمًا على الشعوب، وقيمة الفن العليا أنه يخرج عن نطاق الواقع حين يحاكي الواقع ويجعله واقعًا مختلقًا، والفن يحفز التفكير والخيال، وبالتالي يزداد نشاط الجميع، والفنون هي إنتاج مجتمع يستمتع بالحُرِّية، والتعليم قادر على تحفيز الخيال، ولن نجد حلولًا لهذا الواقع الحالي إلَّا إذا تعمقنا بشدة في غير المألوف، والفن أحد أدوات تحريك العقل وتحليق الخيال.

الفن شديد العلاقة بفكرة المواطنة، على المستوى الواقعي أيضًا كثير من الفنانين يجمعوا الوجدان الشعبي أكثر من أكثر الخطب عنفوانًا، وعلينا فقط أنْ نتأمل تأثير فيروز، وام كلثوم، وعادل إمام، ويوسف شاهين، ومحمد منير، وصلاح أبو سيف، وآخرين كثر في كل ثقافة وكل مكان.

وكلما كانت الأفكار المطروحة في العمل الفني إنسانية، كلما أسهمتْ أكثر في ترسيخ فكرة المواطنة في وجدان الشعب.

- **النسبي والمطلق:**

أحد أعقد المشاكل الكونية وأكثرها إثارة للجدل، فيما يتعلق بما هو نسبي وما هو مطلق، وقد تحتد النقاشات، وقد تصل إلى حد التقاتل، والمطلق: هو فقط مطلق لشخصٍ ما أو مجموعةٍ ما في وقتٍ ما في مجتمعٍ ما، وسط ظرفٍ اجتماعي ما، وسط أحداثٍ تاريخية بعينها، وتغيُّر أحد الظروف يؤدي لتغيُّر ما هو مطلق.

ودراسة بسيطة لتاريخ العالم تجد أنَّ التغيير هو الحتمي، فالمطلق اليوم لدى فرد ما قد يصبح نسبيًا غدًا، وقد يظل كما هو، وقد يعدَّل أو يمحوه من تفكيره، وذلك لعدة اعتبارات، أهمها: التعرُّض لخبرات جديدة، والتفاعل مع الحياة بشكلٍ دائم ومستمر، لذا نجد أنَّ البعض يظل لا يناقش ما هو بالنسبة له أمر مسلَّم به، لا يعتريه تغيير ولا يأتيه بطلان، وذلك في حد ذاته يمثِّل إشكالية مع حركة الحياة التي تتسم بالتغيير الدائم والحركة.

وجود النسبية كحجر زاوية في بناء المجتمع، سوف يعزز قيمة المواطنة في المجتمعات التي تتعدد بها الثقافات والديانات، بحيث لا تصبح الثقافة المهيمنة هي المتحكمة في المعايير الثقافية لمجتمعٍ ما.

- **المـرأة:**

وضع المرأة في العالم تغير عبر التاريخ، ولكنه يظل أمرًا نسبيًا، والنسبية هنا تكمن في رؤية الفرد للواقع. فدور المرأة والمتوقع منها، يختلف حسب وجودها الجغرافي، وحتى رؤية المرأة لذاتها وحقوقها، تختلف من واقع مكاني لواقع مكاني آخر.

في حال الحوار مع امرأة من أفغانستان، أو كندا، أو كينيا، أو مصر، أو السويد، أو السودان، فسوف تجد إجابات متناقضة لكثير من الأسئلة، ولن تندهش حين يكون العدد أكبر من نفس الدولة، فسوف تجد تناقضات في نفس الدولة بحسب الخلفية الاقتصادية والاجتماعية والدينية، ففكرة النسبية متغلغلة حتى داخل المجتمع الواحد.

ولو نظرنا للطعام، فسوف نجد المسلمين واليهود، يحرِّمون أكل لحم الخنزير، ويأكله المسيحيون، ولا يفضِّل البوذيون أكل لحم الخنزير والبصل والثوم ولحم الخيل لكنْ لا يحرِّموها، والسؤال هنا ليس هو.. هل لحم الخنزير جيد أم لا؟ وما هي أسباب التحريم أو السماح به؟ لكنه في نهاية الأمر موضوع نسبي من حيث النظرة إليه، فليس الأمر حين نتحدث عن نسبية الكون له علاقة بالشيء أو المادة أو السلوك، وإنما كيف يتصرف الشخص في اتجاه ذلك السلوك، وعليكَ في نفس الإطار أنْ تتفحص بل وتمتحن كثير من الأنماط السلوكية حول العالم، ويمكن القياس والتدليل على فكرة النسبية من خلال الملابس، بعض المعتقدات لديها مفهوم عن الحشمة مختلف عن المعتقدات الأخرى، وما يعتقد البعض أنه فضيلة قد ينظر له الآخر على أنه لا يمثِّل شيئًا له.

وفي كل الأحوال لابد من بذل جهدٍ ما حتى نتفهم الآخر، ونتعرف على ما هو نسبي وما هو مطلق لديه، وبالتالي يقل مستوى الصدام ويزداد معدل التعاون.

- **حجر الزاوية:**

ومن هنا يتبين أنَّ النسبية هي حجر الزاوية لقبول الآخر واحترامه، وبناء مجتمع متسربل بالتعايش الإيجابي، لذلك فاليقين البديهي أنَّ الاختلاف هو سنة الحياة، وما هو نسبي وما هو مختلف حوله هو كثير، وقد لا نستطيع حصره أوإحصاءه، ومن هنا تتبلور فكرة المواطنة، كلنا مواطنون نعمل لصالح تنمية وطنًا واحدًا، ويحكمنا قانون واحد يطبق على الجميع بحيادية ونزاهة.

الفصل الرابع



مقالات تمّ نشرها بصحيفة المصري اليوم

لقد كانت تلك المقالات المنفذ الأساسي التي انطلقتْ منه أفكاري عن الحُرِّية، وقد أثارتْ بعضًا من الجدل، ولكم أتمنى أنْ تثير جدلًا أوسع عندما تنشر بالكتاب، وكلما زاد الجدل والحوار، كلما سنحتْ الفرصة للإبداع أنْ يرى النور عن طريق تلاقي، وتصادم الأفكار الذي يؤدي بالضرورة إلى تحريك الواقع، وسوف نرى حتمًا التغيير في وقتٍ ما حقيقة واقعية ملموسة.

(١)

"لا تجادل ولا تناقش يا أخ علي"

دائمًا ما نحمل داخلنا أسئلة وأحيانًا اعتراضات، أمور نحتار فيها، وأخرى نعتقد أننا على يقينٍ بها، كم وددنا ونحن صغار طرح العديد من التساؤلات، لكنْ أحيانًا الخوف، وأحيانًا أخرى أجبرنا الآخرون على السكوت، وكأنَّ أمير الجماعة في فيلم الإرهابي، كان حاضرًا دومًا بيننا، صوته يدوي في كل مكان "لا تجادل" وسبب الحيرة هو ما يحدث لنا حين تزداد معرفتنا وتتنوع، ونرى العالم بعينٍ مختلفة عمَّا كان عليه، ومن ثمَّ نبدأ في فحص ما لدينا، ونبدأ في جدال ونقاش لا ينتهي، وعند ذلك قد تبدأ ثورة داخلنا، ونحاول تغيير الواقع الحالي، لذا نسعى جادين للتغيير.

ولكننا غالبًا ما نسمع ذلك الصوت "لا تجادل ولا تناقش" ورغم ذلك فكل شيءٍ في تلك الحياة قابل للنقاش، فلا قيمة للحياة إنْ لم نناقش كل التفاصيل ونقبل ونرفض، ثم نراجع ونعدِّل، وقد نعود لنقبل ما رفضناه سابقًا، تلك هي الحياة حركة دائمة متواصلة، وتصبح رحلة الحياة شديدة المتعة حين يشتد فيها الجدل والنقاش؛ لنخرج بأفكار جديدة طازجة، تجعل من حياتنا أكثر إبداعًا، فالجدال والنقاش نشاط عقلي حيوي وضروري، وهو يستلزم دائمًا انفتاحًا عقليًا على الحياة والمعرفة.

يقول ديكارت: "أنا أفكر، إذن أنا موجود".
فالوجود مرتبط ارتباطًا عضويًا بعملية التفكير، والتفكير والتأمل عمل عقلي ممتع ومثير، يفتح آفاقًا حياتية جديدة ومتجددة.

ويقول أوسكار وايلد Oscar Wilde: " إذا لم تفكّر لنفسكَ، فأنتَ لا تفكّر على الإطلاق".
فلن نحيا دون أن نفكّر، ونجرب.

يتعلّم الإنسان في تلك الحياة من خلال التجربة العملية والفكرية، فمهما قرأ الإنسان عن مكانٍ ما، فالزيارة الميدانية تجربة مختلفة تمامًا، فشيكاغو ليستْ كما كانت تصوِّر الأفلام، الأماكن سواء في الأعمال الأدبية، أو الأفلام مختلفة كثيرًا عن الواقع، ولن تنتهي الحيرة والتساؤلات حتى وإنْ سافرنا، تلك هي الحياة، حيرة عقلية ممتعة، وكلما زادتْ لدينا الأسئلة، كلما زاد الشوق إلى البحث والمعرفة، دعونا نعرف، ومن ثمَّ نعيش.

فالأفكار الجاهزة والمعلبة دائمًا تحاصرنا، وعلينا أنْ نتعامل مع ذلك بثورة تحليل لكل ما يخرج إلينا.

حين نسافر كثيرًا، ندرك أكثر الواقع الذي نعيشه، وهو أمر شديد التعقيد في الخبرة الإنسانية للحياة، نعرف أكثر، فنزداد حيرةً وأحيانًا شقاءً، قد لا ترضى عن الواقع، وتعجز عن تغييره حين يكون الأمر ليس بيدكَ، وهنا قد تُحبط، لذا فلابد دومًا من وضع أهداف واقعية قابلة للتحقيق، ووضع تلك الأهداف يستلزم أساسًا تفكيرًا عمليًا وعلميًا حتى يتحقق ما يرنو له القلب.

ورسالة إلى "علي" من فيلم الإرهابي، وكل شخصٍ كان يعاني ما كان يعانيه، جادل، ناقش، ارفض، اقرأ، سافر وتعلَّم، ولا تخف إنْ ازددتَ حيرة، فالحياة حيرة عقلية ممتعة.

سؤال بريء:

مَنْ يكون "علي"؟...

ومَنْ يكون أمير الجماعة في المشهد السياسي المصري؟.

(٢)

"الكلمة نور وبعض الكلمات قبور"

" عبد الرحمن الشرقاوي"

تبقى الكثير من الكلمات في ذاكرة التاريخ سواء كان تأثيرها إيجابي أم سلبي، هام أم تافه، عشوائية أم عقلانية.

والكلمات ذات التأثير هي تلك القادرة على إحداث تغيير فعلي في أرض الواقع، لذا فهي منطقية عقلانية وواقعية، وعلى مدى التاريخ قيل للمصريين (ارفع رأسكَ يا أخي، فقد ولى عصر الاستعمار)... قالها "ناصر" كثيرًا وصدقه الكثير، ولاشك أنَّ الجملة مشجعة ومبهجة، لكنْ هل كان "ناصر" قادرًا على تحقيق ذلك فعليًا؟.

دائمًا ما أتذكر تلك الكلمات، حين يتردد إلى سمعي الكثير من عشوائية استخدام الكلمة من قادة دولٍ كبرى في كافة أنحاء العالم، يقول السيد "نجاد": (لابد من محو إسرائيل حتى يحلَّ السلام في الشرق الأوسط).. وبنظرة متأملة لتلك الجملة تدرك مدى العشوائية في استخدام الألفاظ، فما هي آليات محو إسرائيل؟ ماذا يعني استخدام كلمة محو؟ فتلك الجملة تمتلك كل مقومات العشوائية اللازمة لتشجيع ثقافة اللامنطق، قد تتفق تلك الجملة مع هوى الكثيرين، لكنْ ما مدى قابلية ما يقوله السيد نجاد للتطبيق الفعلي في أرض الواقع، ونتأمل.. ماذا قدمتْ فعليًا إيران للقضية الفلسطينية؟ نجد أنه ليس إلّا بعض الكلمات.

ثم نظرة أخرى شديدة الواقعية للواقع الاقتصادي لإيران، مستوى التعليم، مستوى الحريات، مستوى الجامعات الإيرانية على مستوى العالم، تلك الأشياء هي ما يجب بذل الجهد من الجانب الإيراني، فليستْ القضية هنا هي القدرة على استخدام كلماتٍ قوية ومثيرة لمشاعر عموم الناس، لكنَّ المقصد والطريق هو أنْ يستمتع عموم الناس بحقوقٍ أكثر، وفرصٍ أكبر للحياة الكريمة، فمن حق المواطن الإيراني أنْ يكون هو الهدف والمرام، ولكنْ من الواضح أنَّ النظام الإيراني لا يقدِّم سوى كلماتٍ.

استخدام الألفاظ بتلك العشوائية ما هو إلَّا مراهقة سياسية يستخدمها قادة أقرب كثيرًا إلى العشوائية من المنطق.

كان السيد "نجاد"، وتلميذه النجيب السيد "حسن نصرالله" من المؤيدين لأحداث ٢٥ يناير، مناصرًا لدفاع الثوار المصريين عن الحُرِّية والعدالة، وهنا تكمن المفارقة، فالسيد نجاد يناصر مطالبة المصريين بالحُرِّية، ويرفضها في بلاده، فقد تعامل ومازال يتعامل بعنفٍ شديد مع أي معارضة.

وحين يُدين السيد "نجاد" مساعدة وانحياز الولايات المتحدة الدائم لإسرائيل، تجده في نفس الوقت يساند حزب الله ماليًا وعسكريًا، ويغض النظر عن مقتل المتظاهرين في سوريا، واللُّعبة السياسية تحمل في طياتها الكثير من التعقيدات التي يستحيل معها أنْ تستخدم ألفاظًا عشوائية، ومن ثمَّ فخروج نجاد ونصرالله من التأثير التاريخي في تقديري أمر حتمي، ومن هنا وبتأملٍ دقيق سوف نجد أنَّ السيد نجاد وغيره من محترفي الكلمات الرنانة والتي قد يستحيل

فعليًا تنفيذها، سوف يبقون لفترة ثم يرحلون، ونحن نتساءل عن جدوى ما قدموه.

لا أستطيع حتى الآن أنْ افسر.. ماذا يعني أنْ تقوم الهيئة الدينية في إيران بتحديد الشكل الذي يجب أنْ تكون عليه تسريحة شعر الرجال؟ وهل للطريقة التي يصفف بها الرجل شعره أيَّة علاقة بالتنمية أو النماء؟.

القيمة والقامة السياسية تتكون من خلال عدة عوامل، أهمها: الحريات المطلقة، التقدُّم العلمي والتكنولوجي، التعليم القائم على الإبداع، الديمقراطية، المحافظة على السلام، الاستعداد العلمي والواقعي لأيَّة مخاطر عسكرية، التسامح الثقافي وقبول الآخر، التنمية المستدامة.

وتأمُل أخير لما قام به مهاتير محمد لماليزيا، لأدركنا الفرق بين محترفي الكلام ومحترفي الحياة، ماذا كانت أولويات مهاتير؟ التعليم والبحث العلمي وإرسال البعثات العلمية للخارج، فواقعية مهاتير محمد لابد وأنْ تُخرس هؤلاء، فكفانا كلامًا؛ لأنه سوف يؤدي يومًا ما إلى مزيدٍ من الكلام ليس إلَّا.

فالكلمة نور حين تصدر من عقلٍ يحكمه المنطق، والكلمة قبر حين تصدر من صوتٍ عالٍ منسوجٍ بغزل الانفعال ـ العشوائية واللا واقعية ـ ولو كانت الشعارات والكلمات الرنانة قادرة أنْ تحلَّ أيَّة قضية، لكان العرب اليوم في صدارة المشهد.. لكنَّ الحكاية ليستْ أبدًا كذلك.

(٣)

مسرح العبث

لماذا يلجأ المسيحيون في مصر إلى التحايل على القانون عند بناء دور العبادة؟ فيحصلون على تصريحٍ لبناء مبنى للخدمات، وبعد مرور بعض الوقت يقومون بتحويله إلى كنيسة، هل يحتاج ذلك السؤال إلى إجابة؟ يبدو سؤالًا عبثيًا!.

في مسرحية صمويل بيكيت الشهيرة "في انتظار جودو" ينتظر شخصان شخصًا يدعى "جودو" لا يأتي أبدًا، وهم لا يعرفون.. لماذا لا يأتي؟ وإذ كان سيأتي أم لا، وتنتهي المسرحية، وهما ينتظران.

وتبدو القصة في ثقافتنا المصرية الحالية أكثر عبثية مما كتبه "بيكيت" المشكلة في معظم الأحيان هي عدم وجود مشكلة حقيقية أساسًا، فنحن في مصر نحاول دائمًا إيجاد حلًا، يرضي جميع الأفراد بنسبة تتناسب مع مدى قوة وتأثير كل فردٍ في المجتمع، وهذا هو العبث واللامعقول معًا.

ما حدث في إمبابة، الكشح، أطفيح، المنيا، الزاوية الحمرا، ماسبيروا سيناريوهات مختلفة لنفس العبث، حين نحاول جاهدين النظر فيما يحدث، ونقترح الحلول، ونتكلّم عن سيادة القانون، وقانون دور العبادة الموحد، أبدًا لا نجد الحل كما لا يأتي "جودو"

أبدًا، فغالبًا ما تبدأ المناقشات والاقتراحات بالحديث عن أشياء أخرى غير المشكلة الحقيقية، نتحدث عن الوحدة الوطنية، وذكريات المحبة بين المسيحيين والمسلمين، ولا مانع من ذكر اليهود أحيانًا، وهذا هو العبث إذ أننا نتكلّم عن المحبة في حين أنَّ ما يجب عمله هو التحقيق في جرائم قتل، قطع اذن، هدم دور عبادة، إرهاب الآمنين، تكدير الأمن العام، وإشعال الفتنة الطائفية.

والسؤال الثاني.. ما هو الضرر الذي يقع على بعض المسلمين عند بناء دور عبادة للمسيحيين؟ فيحاولون تصحيح هذا الخطأ القانوني بهدم الكنيسة.. هل بعض المسلمين هنا يدافعون عن القانون؟ هذا أيضًا سؤالًا عبثيًا!

هل بعض المسلمين يُستفزون من القبة والصليب؟ هل من حق الأفراد مهما كان انتماؤهم الديني أنْ يطبقوا القانون بأيديهم أم هذا هو قانون الأغلبية ضد الأقلية؟ لماذا يجد بعض المسلمين بناء دور العبادة أمرًا يسيرًا، ويرى المسيحيون صعوبات باتتْ تصل إلى المستحيلات في أمر بناء الكنائس؟ وكيف يمكن لمحافظ أنْ يترك الأفراد تطبق القانون بأيديهم ثم يستحسن ما فعلوا؟ وأين السيد/ عصام شرف، والمجلس العسكري من كل هذا؟ كل ما ذُكر أعلاه أسئلة عبثية.

يوجد خلل شديد في المجتمع المصري، ينص الدستور المصري على حرية المعتقدات، لكنَّ الرسالة لم تصل أبدًا إلى كل فئات الشعب، ولا يستمتع بهذا الحق جميع المصريين، يوجد بمصر بهائيون ولا دينيون، وربما أيضًا أصحاب معتقدات أخرى لم ألتقي

بهم حتى الآن، فهل الجميع متساوون أمام القانون؟! سؤال لابد وأنْ يجيب عليه كل المعنيين بالشأن المصري، حكومة ومجلس عسكري، ولابد للشعب هنا أنْ يكون له موقفًا محددًا.

"مَنْ شاء فليؤمن، ومَنْ شاء فليكفر" من أهم مبادئ الحضارة الإسلامية، فماذا حدث؟!.

إنَّ حرية الاعتقاد، وحرية ممارسة العقيدة هما من أساسيات كل القوانين الدولية في أغلب أنحاء العالم، فهل لنا أنْ ننتمي إلى العالم الحقيقي، عالم التسامح وقبول الآخر كما هو، فمَنْ أراد أنْ يبني دارًا للعبادة فله مطلق الحُرِّية في ذلك، طالما وجدتْ قوانين عادلة تتعامل مع كل المواطنين بعدلٍ ومساواة دون تمييز.

الحُرِّية هي الجسر الوحيد القادر على أنْ يحملنا إلى العالم الحقيقي، مهما اختلف ما يؤمن به شخص ما عن الآخرين، فليس للآخرين الحق في التعامل مع الشخص الآخر بناءً على ما يؤمن به.

تمييز جماعة عن أخرى كما هو الحال في الشأن المصري بخصوص بناء دور العبادة، أمر يوحي باستحالة ممارسة الديمقراطية الحقيقية في مصر.

من أهم خصائص المجتمع الديمقراطي أنْ تشعر الأقلية أنَّ لديها نفس حقوق الأغلبية، فهل يأتي اليوم الذي نصبح جميعنا مصريين مسلمين، مسيحيين، بهائيين، بوذيين ولا دينيين.

(٤)

الابنة الشرعية للحرية

أحد التعريفات الكثيرة للحضارة، هو الإنجاز المادي لثقافة ما، أهمية العلم والتفكير المنطقي في مجتمعٍ ما، ينتج عنهما مخترعات كالكمبيوتر والأجهزة الإلكترونية المتطورة، فلن تستطيع ثقافة تؤمن بالخرافة والجدل أنْ تصبح حضارة عظمى مثلًا، فماذا أنجزنا حتى الآن؟ هل سنضع حلولًا لمشاكل التلوث، التعليم، احترام الحياة الخاصة للآخرين، البلطجة والعنف، والمواصلات معتمدين على شعارات ووعود، كفانا شعارات، قد ولي عهد الكلمات، ويبقى فقط القدرة الفعلية على الإنجاز؛ كي نتحول من ثقافة كلامية إلى ثقافة قادرة على الإنجاز والفعل، فنتحول بذلك إلى حضارة .

ومكونات الحضارة في العصر الحديث، تقوم على التفكير العلمي والمنطق، وهما يغيبان تمامًا عن المشهد المصري المعقد.

فكثيرًا ما تثار قضايا عبثية، تلهي الرأي العام عن النظر في القضايا الحيوية.

الشارع واقعي تمامًا، ومصلحته سوف تبقى دائمًا هي المحك، فالشارع بالأساس يعنيه أنْ يعيش حياة كريمة تليق به كإنسان، وأيضًا حرية وكرامة وعدالة، فالشعارات الدينية قد تحرك مشاعر

البعض في لحظاتٍ، لكنَّ اللُّعبة أكبر من ذلك بكثير، وهؤلاء الذين يستخدمون الستار الديني كي يثبتوا مدى قربهم من الدين، وبالتالي مدى قدرتهم على حل المشاكل، قد يقعون في إشكالية الخلط، فالتيارات الدينية ترفض حتى مناقشة المبادئ فوق الدستورية، وهم الهابطون على انتفاضة التحرير بالباراشوت.

إنْ لم تؤمن تلك الانتفاضة الشعبية، ومسئولي الدولة حاليًا بالحُرِّية المطلقة في كافة مجالات الحياة، فما حدث لا قيمة له، فالحُرِّية هي الأساس الذي يولد منه الحضارة، ونظرة إحصائية على أهم الدول المتقدمة في العالم في الوقت الحالي من اليابان في أقصى الشرق مرورًا بسويسرا، ألمانيا، السويد وصولًا إلى كندا وأمريكا والبرازيل، سوف نجد أنَّ نعيم الحُرِّية المطلقة هو أحد أهم روافد الحضارة الحديثة لتلك الدول، فلا حضارة دون حرية مطلقة.

ونظرة بسيطة للوضع المصري الحالي، تجد حربًا كلامية حامية دون نتيجة محددة، سوى محاولة إثبات الفساد الفكري للطرف الآخر - ضجيج بلا طحين - ليتنا نفعل شيئًا غير الكلام.

لو أنَّ فردًا واحدًا في الشعب المصري كله، قرر أنْ يختلف بل لو اختلف مع العالم كله، يظل له الحق الأصيل في أنْ يفكّر بطريقته، ويعبِّر عنها كما يشاء، ويقول المفكر الليبرالي الكبير جون ستيوارت ميلJohn Stewart Mill : "إنَّ الشعب يتوقف عن كونه تقدميًا عندما يكف عن امتلاك الفردية، ويحرم التفرد".

من الخطورة بمكان أنْ يتصور أي آخر أنَّ لأفكاره أي قدسية، طالما تشارك بالمعركة السياسية، فعليكَ خلع العباءة الدينية وإلَّا سوف ندخل في جدالٍ مع ما تعتبره مقدس، وننسى أنَّ اللُّعبة كلها نسبية وبلا ثوابت، والفردية هي ما تجعل الفرد يحتفي بنفسه، وبكونه مختلفًا مهما كره المحافظين، فالتفكير المحافظ يستمتع بوضع حلول ترضي جميع الأطراف، فأغلب المثقفين حاولوا جاهدين الدفاع عن رواية نجيب محفوظ "أولاد حارتنا" وأصدروا أحكامًا على ما يقصد حقًا نجيب محفوظ، رغم أنه هو نفسه لم يعنيه دفاعهم؛ لأنَّ في النهاية العمل الأدبي عمل خيالي لا تنطبق عليه التفسيرات الدينية المطلقة، ودفاعهم عن الكاتب الكبير عبثي؛ لأنه يكرِّس فكرة الحق في قتل الكافر من وجهة نظر الطرف القاتل، فليس لأي طرفٍ مهما كان أنْ يسأل الآخر عمَّا يؤمن به، فما يعتده الفرد حقًا مطلقًا لا مساس به.

لن تنهض أمة لا تؤمن بحرية الفرد المقدسة.. الحُرِّية هي الحل.

(٥)

ليس طريقًا واحدًا

المتأمل للحال المصري، لابد أنْ يسترعى انتباهه مدى اللخبطة وخلط الأشياء في حياتنا، فنحن نربط ما هو ديني بكل مناحي الحياة حتى لو كان غير مرتبط، فنمتدح لاعبًا ما؛ لأننا معجبون بأخلاقه وتدينه، رغم أنَّ ذلك في الغالب علاقة بين الإنسان وربه، ولا يعلمها مَنْ هم حوله.

فكيف نقيِّم موهبة أبو تريكة ومارادونا وميسي، وننحي جانبًا تصورنا الأخلاقي عنهم! وهل نقيِّم تاريخ الدكتور محمد البرادعي السياسي والمهني ومواقفه الوطنية بمعزلٍ عمَّا يعرف عن الإسلام؟! فمن الطبيعي أنْ يعرف البرادعي عن الإسلام، وليس لأحد الحق أنْ يسأله عن مقدار معرفته، والسؤال الآن: لماذا ينشغل مواطن بتلك المعلومة؟!

على حد علمنا جميعًا البرادعي رجل سياسي، وليس رجل دين، فما مدى فاعلية وأهمية أنْ تسأل رجل سياسي عن مدى تدينه، أو تتهمه بالتدين من عدمه، فهل أصبح البشر في موضعٍ يسمح لهم بإقامة محاكم تفتيش في ضمائر الآخرين؟! وكأنما أصبحنا نقيِّم أداء الآخرين بمدى اقترابهم، أو ابتعادهم عمَّا نعتقد نحن بأنه الحق المطلق.

وكنا في زمانٍ سابق، نقول: "إنَّ لكل مقامٍ مقال" وأصبحنا نجابه بمَنْ يقول إنه قول واحد مهما قال الآخرون.

ومهما بلغتْ معرفتنا بشخصٍ ما، يظل تدينه أمرًا يصعب التكهن به، لكنْ في وطننا العزيز نحن دائمًا في حالة انشغالٍ دائم بتحليل أخلاق الآخرين وإعطائهم تقديرات، ونحن نعلم يقينًا أننا غير منوطين بذلك.

والتفسير الغالب دائمًا إنْ كان الشخص متدينًا فإنَّ الله يكرمه، وهذا مثير للعجب، إذ أنكَ مهما تدينتَ وصليتَ، فلن يتعلق هذا من قريبٍ أو بعيدٍ بممارسة الرياضة، الله لا يكافئ الفريق الأكثر تدينًا فيحرز أهدافًا أكثر.

حينما نقرر إعمال العقل والمنطق في الحياة، فسوف نحدد ما هو ديني وما هو دنيوي، ومن ثمَّ سيكون المنطق هو الملجأ والطريق، إذ يصبح الدين مكانه دار العبادة، والشئون الدنيوية هي إدارة الحياة بما يمليه الواقع من احتياجات، والتعامل مع الواقع يتطلب دائمًا المعرفة والتجريب، وفى التجريب نُصيب ونخطئ.

ومن المثير للعجب طرح أسئلة على مرشحي الرئاسة من التيار الديني، مثل: هل ستسمح بالمايوه البكيني والمشروبات الكحولية؟ وكأنَّ المرشح المحتمل أو حتى الرئيس، من حقه أنْ يفرض علينا أسلوبًا ما للحياة.

لن يجرؤ رئيس أو غفير أنْ يملي علينا كيف نعيش، فهذا حق أصيل للفرد، مهما اختلف عن الآخرين.

فحق الاختلاف لابد أنْ يكفله الدستور للجميع، جزء من طبيعة الحياة أنْ يتفرد الإنسان بما يتوصل له خياله، وبحثه الدائم نحو معرفة بواطن الأمور، واكتشاف أسرار الكون من خلال العلم والفكر الحر والمنطق.

وهذا ما يفسر تعرُّض كثير من العلماء والمفكرين للاضطهاد عبر التاريخ بدءًا من جاليليو، طه حسين، سلامة موسى، ابن رشد، وهذا ما يفسر أيضًا سر تفوق الدول التي تتبنى التفكير العلمي منهجًا للحياة، إذ أنَّ العقيدة الأساسية في دول العالم المتقدم، تنحي الخرافة والعشوائية جانبًا؛ ليحلَّ محلهما المنطق والحُرِّية المطلقة وسيادة القانون.

وحيث يسود الآن اللامنطق والعبث، نجد فتاوى كثيرة تتحدث عن السياحة وفقًا لشرع الله، وكأنَّ الناس تأتي إلى مصرنا العزيزة حتى نعطيهم دروسًا في التقوى والأخلاق، مع العلم بأنَّ إحدى الشكاوى الدائمة من السائحين هي التحرش الجنسي، ناهيكَ عن الاستغلال وسوء المعاملة أحيانًا.

وهل ستمارس البنات الألعاب الرياضية، مثل: التنس، والباليه المائي، والسباحة، وغيرها من الألعاب وفقًا للرؤية القاصرة لبعض السلفيين للحياة؟! فالحياة كما يراها البعض منهم ما هي إلَّا موت محقق، لكننا سنحيا، نثور، نغني، نتعلَّم، نخطئ ونُصيب في رحلة الحياة.

(٦)

أمراض سياسية

"أنا مش هاموت بالمرض اللي عندي، أنا هاموت بالمرض اللي عندكم"... هذا ما قالته أسماء في واحدٍ من أهم الأفلام المصرية: "أسماء" وهو يعكس إحدى حقائق المشهد المصري السياسي والاجتماعي، إذ تعاني كثير من شعوب العالم من أمراض حكامها، فسياسيًا ومنذ أمدٍ بعيد تقتلنا أخطاء السياسيين الواحد تلو الآخر، ولا نكاد نحاول الوقوف من آخر هزيمة حتى نهزم من جديد، والأمراض السياسية كثيرة ومتنوعة، منها المزمن، ومنها العارض، والمتأمل بعمق فيما يحدث في تلك الأيام سوف يدرك أنَّ أهم الأمراض الحاضرة الآسِرة، هي هيمنة الأيديولوجية والفكر السياسي العقائدي على تفسير الواقع، مهما اختلف ما يتطلبه الواقع مع الثوابت الفكرية لهذه الجماعة أو تلك، ومهما كانت أهمية العقيدة السياسية التي يتبناها فريق ما، فعدم قدرة ذلك الفريق على قراءة الواقع وتحليله، ومن ثمَّ اتخاذ منحى يتناسب مع الظرف الراهن، هو فشل سياسي حتمي، لذا فالسياسي الناجح هو القادر على الاستجابة للتغيير بمرونة تمكنه من التعامل مع الواقع ومتغيراته.

وفِهم الواقع وقراءته يحتاجان إلى معرفة ووعي شديدين، فسياسيًا ومنذ محمد علي باشا أدى عدم قدرته على فِهم مدى قوة الغرب،

وكيفية التعامل مع تآمر الغرب ضده إلى انحسار مشروعه "النهضة" في ذلك الوقت، وصولًا إلى "ناصر" وعدم رؤيته الواقعية لقدرات الدولة المصرية إبان حكمه، وتمسكه بأنَّ الغرب يتآمر ضده، لكنْ.. ما الذي قام به للتعامل بواقعية وحرفية سياسية مع هذا التآمر؟ وهذا يعكس مدى قصور الرؤية والفعل لديه، فالوعي بمشكلةٍ ما يتطلب معه إدراك حجم قوتي الحقيقية لإيجاد حلولٍ واقعية أكون قادرًا على تنفيذها، ومن البديهي وجود صراع للقوى الدولية الكبرى، ومحاولات حثيثة لتقليم أظافر القوى الناشئة، وحين يخبرنا بشار الأسد بوجود تلك المؤامرة، فإنَّ الجميع ينتظر منه كيفية التعامل مع الأزمة الحالية، وليس مبررات حدوث الأزمة، والأزمة السورية شديدة التعقيد، ولن تُحل إلَّا بخطواتٍ جدية على الصعيدين المحلي والدولي، وليس بالتحديد الجزئي للمشكلة، وهو ما ينتهجه النظام السوري، ومن الواضح وجود مشكلة داخلية بسوريا، ولن تُحل سوى بحلولٍ جذرية واقعية إبداعية وسريعة، فالتعامل السوري مع الأزمة الراهنة لا ينبئ بأيَّة حلولٍ واقعية ممكنة.

وينسحب هذا القصور ذاته على الرئيس السابق حسني مبارك في عدم قدرته على حل المشاكل الاقتصادية الملحة، أو الاستجابة السريعة للتغيرات الحادثة بالشارع السياسي، وقصور فكر إدارة الأزمة في المطبخ السياسي المصري أدى إلى إنهاء مشواره السياسي بتلك الطريقة.

وبما أنَّ أحد تعريفات السياسة أنها فن الممكن، فسوف ينسحب القصور ذاته على المطالب غير الواقعية لمَنْ تبقى في ميدان التحرير، فعدم وجود برنامج واضح ومحدد، وقائد ذي شعبية هو ما جعل الأمور تسير على نحوٍ ما في اتجاه فوضوي عبثي أكثر منه تنظيمي بنائي.

وبنظرة متأنية لأمثلة أخرى وتحديدًا "موجابي" رئيس زيمبابوي، فهو زعيم أفريقي كبير، وكان له دور نضالي لا ينكره الجميع في كل أنحاء العالم، لكنه حين قام باتخاذ قرارات اقتصادية كان من شأنها وصول الاقتصاد الزيمبابوي إلى مرحلة شديدة التدهور تصل إلى الكارثة، في هذه الأثناء فقد موجابي ثقة شعبه رغم نضاله التاريخي.

النضال الثوري في ميدان التحرير لا يعطي ميزاتٍ أكبر للثوار، فالطرح العبثي لفكرة أنَّ الثائر يحكم، غير منطقي أو غير عملي، من كبرى الكوارث التي حلَّتْ بمصر حكم الجيش بعد الانقلاب العسكري ١٩٥٢م، فقيام الجيش بتولي جميع الأمور في تلك المرحلة من تكوين الحكومة، وجميع شئون الحكم في أمورٍ لم يكن لديه دراية كافية بها، أدى إلى كوارث في جميع المناحي.

حين يمرض الحاكم بإدمان السلطة، ويحاول أنْ يبقى مدى الحياة، فهو يميت شعبه كل يومٍ، ويموت الشعب بسبب أمراض حكامه، فهل نرى يومًا حكامًا لا يجلبون موتًا لشعوبهم، أم نرى شعوبًا تجلب حكامًا يدمرونها؟!. لنرَ.. ماذا سنفعل بأنفسنا؟.

(٧)

"لا تستوحشوا الحق لقلة سالكيه"

هذا ما قاله "علي بن أبي طالب" منذ أمدٍ بعيد، وحيث إنه كان يخاطب عموم الناس فقد استخدم "لقلة سالكيه" أما إذا وُجِدَ في العالم السياسي اليوم، وحاول إعادة نفس الكلمات، فإنه قد يستخدم "لندرة سالكيه" فمن النادر في عالم السياسة اليوم وأمس وغدًا أنْ تجد هؤلاء السالكين بالحق، لكنَّ السؤال الآن: ما هو الحق؟.

فالحق والحقيقة دائمًا وأبدًا هما أمور نسبية، ويتوقفان بقدرٍ هائل على كيفية رؤيتنا للحياة، إذ ترى الولايات المتحدة الأمريكية أنها بغزو العراق وأفغانستان كانت تحمي الأمن القومي الأمريكي، أو لنقلْ أيضًا هذه الرسالة التي تصل إلى المواطن الأمريكي، ويصدقها الكثيرون، ويرفضها الكثيرون أيضًا، وحين تحلّل في ضوء هذا الموقف.. ما هو الحق؟ وأين الحقيقة؟ تجد نفسكَ حائرًا، إذ يتعين عليكَ فِهم طريقة تفكير القوى العظمى، والأساليب الاستراتيجية في تعريفهم للأشياء، ومن ثمَّ قد يكون هذا الحق هو نفسه باطل لآخرين، ويقاس على ذلك أيضًا تعريف حكومة إسرائيل لما يسمى أمن إسرائيل، وموقف روسيا والصين وإيران وحزب الله وبعض الأطراف بسوريا من الأزمة هناك، وموقف الزعيم الراحل "غاندي" حين طالب الأكثرية الهندوسية بالمحافظة على حقوق

الأقلية المسلّمة، وكان ذلك أحد الأسباب الرئيسية لاغتياله، عن طريق هندوسي وجد أنَّ ما يقوم به "غاندي" يُعد تعديًا على حقوق الأكثرية الهندوسية، وقد لام الكثيرون "غاندي" في مسألة انفصال باكستان عن الهند، أما هو ولكونه زعيمًا روحيًا وليس سياسيًا بالمرة، فقد رأى الحق كفكرة واحدة بسيطة صريحة ليس بها أي التواء، فقد كان يؤمن بالحُرِّية بطريقة مطلقة، وليس كما يعرفها السياسيون حسب المصلحة، وأما المصلحة في القاموس السياسي فهي الجوهر والأصل، والباقي مجرد فروع.

وبما أنَّ المصلحة هي الجوهر والأصل في الفكر السياسي، فكي نحقق ما نصبو إليه علينا التأمُل بواقعية في المشهد السياسي، ومدى ارتباطه التلازمي بقوة بالاقتصاد والتعليم، فالدول العظمى في عالم اليوم لديها تعليم رفيع المستوى، يشجِّع التفكير النقدي، ويطور مهارات التواصل والاتصال والإبداع، واقتصاد قوي منتج وتنافسي، ومن ثمَّ أصبحتْ دولًا ذات ثقل ووزن سياسي، فالدول العظمى دول كبيرة ليس لأنها تتبع الحق أو لديها الحق، لكنْ لأنها الدول التي تصنع فارقًا في أرض الواقع، فهي دول قادرة على تغيير الواقع، إذ هي الدول التي تنتج التكنولوجيا، وتطوِّر الصناعات الحديثة، وتشجِّع العلم والعلماء، فلن نغيِّر الواقع عن طريق الخطابة الجهورية بمجلس الشعب، سنغيِّر الواقع فقط حين نمتلك أدوات التغيير.

محاولات إيران الحثيثة لإنتاج قنبلة نووية، هو أمر يثير الدهشة من واقع فكرة الحق المطلق، فمن حق إيران أنْ يكون لديها سلاح

نووي، ومن واقع مستوى التعليم والاقتصاد فإنَّ محاولات إيران للقيام بذلك تكاد تصل إلى مستوى العبث السياسي، الواقع الاقتصادي الإيراني سيئ للغاية خاصةً بعد العقوبات الاقتصادية، وازدياد معدلات التضخم لمستوى قياسي، فالمواطن العادي يعاني بشدة من وطأة قرارٍ سياسي متعجل، فلن ترتفع مكانة الدول باستيراد أسلحة متطورة، أو المحاولات المستمرة لإنتاجها، رغم عدم توازي ذلك مع مستوى التعليم والاقتصاد والحريات، فهل تعيد إيران قراءة الأولويات أم تتمسك بالحق المستحيل؟.

(٨)

وهذا في رأيي مرضٌ خطيرٌ

في رواية "باولو كويهلو" فيرونيكا تقرِّر أنْ تموت، تسأل فيرونيكا الطبيب النفسي المعالج لها بعد أنْ تمَّ إنقاذها من محاولة انتحار:

ـ هل شفيتُ؟

ويرد الطبيب:

ـ لا.. أنتِ شخصية مختلفة لكنكِ تحاولي أنْ تصبحي مثل الآخرين، وهذا في رأيي مرض خطير.

حين نحاول جاهدين أنْ نسير وسط القطيع، نتبع قائدًا ما دون سؤالٍ أو تحليلٍ، سوف تجد أنَّ فكرة الرئيس التوافقي تسير في نفس الاتجاه، تسير نحو الحشد والدعم لمرشحٍ بعينه بغية أنْ يصبح بلا دور، وتهيمن قوة بعينها على مقدرات الأمور، وسواء كانت تلك القوى هي المجلس العسكري، الإخوان المسلمون، السلفيون، أو حتى ما يطلقون على أنفسهم الثوريين، سوف تجد أنَّ الجميع يحاول جاهدًا نزع إرادة الشعب نزعًا، وحين يصبح الشعب دون إرادة سوف نتأكد تمامًا أنَّ الدولة سقطتْ، إذا كانت القوى السياسية حريصة حقًا على القيام بتغييرٍ حقيقي، فسوف تعطي الشعب فرصة حقيقية للتقييم، لكنْ بما أنَّ ثقافة الهيمنة قائمة، وفرض الرأي باسم

الوطنية متغلغل، فيجب على القوى السياسية مراجعة دورها الحقيقي؛ كي لا تصبح نسخة مكررة من كل الأنظمة السابقة.

وما يفعله اليوم الإخوان والسلفيون من إقصاء الأطراف الأخرى ما هو إلَّا اعتقاد وهمي أنهم يملكون أدوات تغييرٍ حقيقية، والحقيقة أنهم فقط وراء مغانم سياسية، وسوف يؤدي ذلك إنْ آجلًا أم عاجلًا لصراعاتٍ مريرة، قد تنتهي بنا خارج سياق العالم المتقدم، وتقربنا أكثر وأكثر من عالم الدول الكلامية الخطابية التي تتكلَّم ولا تنتج، فحين نقصي الفقهاء الدستوريين أمثال ثروت بدوي، يحيى الجمل، جابر نصار، ونختار وفقًا للهوى والميل فسوف نهوي ونميل نحو الهاوية السحيقة.

وهل أساسًا توجد معايير موضوعية للقيام بأي دورٍ في مصر؟ فغالبًا ما توزع الأدوار لأهل الثقة، وليستْ الكفاءة.

الإخوان رحبوا بالجنزوري، ثم انقلبوا عليه، أعلنوا في البداية أنهم سوف يترشحون على ٣٠ % من مقاعد البرلمان، ثم حاولوا الفوز بأكبر عدد ممكن من المقاعد، فصلوا دكتور عبدالمنعم أبو الفتوح لمخالفته قرار مجلس شورى الجماعة، ثم عادوا يُلوحون ويهددون بترشيحٍ آخر لمنصب الرئيس.. ماذا تريد الجماعة؟! مَنْ يمول الجماعة؟ هل للجهاز المركزي للمحاسبات الحق في رقابة حركة الأموال في الجماعة؟.

وهذا الحوار يلخص حال كثير من الأشياء في المجتمع المصري، وإنْ كان ينسحب بشكلٍ ما على العالم العربي، والعدد الكبير من

المرضى النفسيين الذين يحيون مثل القطيع يتبعون الجماعة، إما خشيةً من أنْ يصبحوا منبوذين خارج الجماعة، أو يخسروا النفوذ المصاحب لوجودهم داخل الجماعة، والجماعة في معظم الأحوال هي القوة الأساسية على أرض الواقع، وقد تكون دينية، أو اقتصادية، أو أشياء أخرى، وحينئذ يصبحون في موقف الفريق الأضعف، وهذا في حد ذاته انتهازية مقيتة، أو خوف قد يؤدي بصاحبه إلى الانسحاب من الحياة، واتخاذ موقف المشاهد للحياة لا المحرك للأحداث، أو حتى الثابت في مكانه معلنًا ما يعتقد هو رغم اختلافه عن التيار العام.

ولابد لنا في جميع الأحوال أنْ نتأمل حياتنا وما نتبعه.. هل نحن نتبع فكرًا ما عن قناعة، أم عن خنوعٍ وكسلٍ في تحليل وتفتيت تلك الأفكار واختبارها على أرض الواقع؟.

ولكي يقوم فرد ما بتحليل وتفتيت تلك الأفكار، لابد وأنْ يعي ما هو الواقع الذي يحيا فيه، والوعي بالواقع أمر شديد التعقيد حيث إنَّ ما يؤثر في حياتنا كثير ومتنوع، فمنذ لحظة الميلاد وحتى الممات، نمر بالكثير منه الإيجابي والسلبي، بدايةً من بلد الميلاد، ومدى الحُرِّية المتاحة، ومدى جودة النظام التعليمي الذي يدرِّب التلاميذ على التفكير النقدي، والتعلُّم من خلال جمع المعلومات من عدة مصادر، ثم تحليلها لاستنتاج معلومات أقرب إلى الحقيقة، ويدرك الطالب هنا مدى النسبية والتغيُّر الدائم لفكرة الحقيقة.

وعلينا أنْ نختار إما أنْ نسير مع القطيع، أو نختار حياتنا بأنفسنا، وبمعنى آخر إما أنْ نحيا أو أنْ نموت.

(٩)

يا عزيزي كلنا "مرشحون"

(الحُرِّية الصحيحة مرهونة بأنْ يكون الحر على علمٍ بالمجال الذي أراد أنْ يكون حُرًّا فيه)...

هذا ما قاله الفيلسوف المصري د/ زكي نجيب محمود في كتابه الممتع "حصاد السنين" وما قاله ينطبق على ما يحدث في أرض الواقع حيث يختلط ما هو ديني بما هو دنيوي، الدور المنوط به السياسي والدور المنوط به رجل الدين، وأولوية أنْ يكون الشخص على علم ودراية بما يقوم به، لا تدور بالأذهان كثيرًا إنْ لم تكن نادرة الحدوث، فقط نتأمل محنة اللجنة التأسيسية للدستور وما آلتْ إليه، وأيضًا معظم لجان مجلس الشعب، ومدى هيمنة التيار الإسلامي حتى كاد يتفوق كمًّا وكيفًا على رفيق الهيمنة السابق الحزب الوطني.

وقد يفاجئكَ الكثير بأنهم يساندون الشيخ أبو إسماعيل: د. أبو الفتوح، د. سليم العوا، والشاطر، وذلك بسبب الخلفية الدينية لكل فردٍ منهم، وقد يكون التقييم على حسب اعتقاد الفرد في اقتراب هذا المرشح أو ذاك من التدين كما في مخيلة صاحب ذلك الرأي، ولا شك أنَّ في ذلك خلط بين التوصيف الوظيفي لرئيس الجمهورية ومدى تدينه، فمهما تدين الفرد فهذا لا يضمن أداءً سياسيًا أفضل،

فإذا أردتَ أنْ تساعد ابنكَ في دروسه، فلن تبحث عن المدرس الأكثر تدينًا، بل دائمًا ما تبحث عن الأكثر كفاءة، وينطبق هذا على معظم أشكال الوظائف الحياتية.

لابد أنْ تحمل شخصية رئيس الجمهورية مصداقية، والمصداقية مفهوم عالمي تحترمه كافة الأديان وكافة الثقافات، أنْ تفعل ما تقول، ويكون الصدق في القول والفعل هو منهج الحياة، هذا هو الجانب الأخلاقي في رئاسة الجمهورية، وإذا تتبعنا قصة الشيخ أبو إسماعيل وجنسية والدته، وكثرة الروايات المتضاربة حولها، علينا أنْ نفكّر جديًا في مدى اقترابه وابتعاده من فكرة المصداقية، وتلويح الشيخ أبو إسماعيل باستخدام القوة ما هو إلَّا مؤشر خطير نحو توجه سياسي يلبس عباءة إرهاب الآخر.

وينسحب هذا على السيد/ عمرو موسى الذي ينتقد الفريق شفيق؛ لأنه كان رئيسًا للوزارة في النظام السابق مع أنه كان وزيرًا للخارجية، وقام الرئيس السابق بتزكيته كأمينٍ عامٍ للجامعة العربية، فليس كل مَنْ عَمِلَ تحت إدارة النظام السابق خائنًا أو عميلًا أو فلولًا، فمَنْ كان وزيرًا أو غفيرًا، كان يعمل في الدولة المصرية، ولم يكن يعمل لدى الرئيس السابق، والمعيار هنا هو مدى كفاءة وأمانة ذلك الفرد في العمل الموكل إليه، وينسحب ذلك أيضًا على الإخوان المسلمين الذين نعتوا كل أعضاء الحزب الوطني بالفلول، وهذا ضد أي منطق بسيط، فأنْ نقول أنَّ ٣ ملايين عضو كلهم فاسدين، فهذا كلام أبسط ما يقال عنه أنه كلام مرسل، يقال في مقهى وليس من سياسي يفترض البعض فيه أنه محنك وذو دراية،

وقد رأينا د. الكتاتني يرفع راية تطالب بطرد السفير الأمريكي من مصر في ٢٠٠٥م يوم كان في صفوف المعارضة، ثم يصافح السفيرة الآن، ويتحدث الإخوان المسلمون عن نزاهة الانتخابات، ولا يتحدثون عن المال السياسي الذي ساعدهم كثيرًا فيما وصلوا إليه، وقد هاجوا وماجو في قضية الجمعيات الأهلية، ومع ذلك فهم يرفضون توفيق أوضاعهم كأي جمعية أو مؤسسة تعمل في المجتمع، فغريب أنْ نطالب الآخرين بأنْ يفعلوا ما لا نطيق فعله.

ما كان يقلق المجتمع الأمريكي في القضية الشهيرة "كلينتون ـ مونيكا لوينسكي" هو كذب الرئيس تحت القسم، وليس سلوكه الشخصي الذي يتحمل هو عواقبه، فما يهم المواطن العادي في أي رئيس جمهورية، هو مدى قدرته على الأداء الجيد في إطار تنفيذه لمهام وظيفته، أما سلوكه الديني فهذا أمر لا يعلمه إلَّا الله، وليس كل مَنْ تحدَّث عن الله يعرف الله حقًا، فنحن نعرف الكثير عن الآخر من اتساق القول مع الفعل، وليس هذا التناقض الفج بين معظم ما يقوله الساسة وما يفعلوه.

وما نسمعه الآن يفتقد أبسط أشكال الدقة، فمعظمه عام ومرسل، فغالبية المرشحون للرئاسة يتحدثون بمنطق الوعود البراقة، وليس الخطة الواقعية محددة الملامح، وها هو الشاطر يقول: "هدفي الأول والأخير هو تطبيق الشريعة" وفي ذلك غزل صريح للسلفيين، فمن الواضح أنَّ الشاطر سوف يحاول بكل الطرق إثبات أنه شاطر، لكنْ.. هل هو كذلك؟!.

ولماذا تذكَّر مجلس الشعب فجأة أنْ يفصِّل قانونًا بعينه لإقصاء السيد/ عمر سليمان، وذلك فقط حين وُجِدَ تعارض بين وجود سليمان ومصلحة الشاطر، فهذا الهطل السياسي يفتقد إلى أبسط أشكال الوعي بالمشاكل الحقيقية، ويغرقنا ليل نهار في أمورٍ إما أنْ تصب في مصلحة الإخوان أو تدفعنا نحو الهاوية.

قام أردوغان بتوزيع ١٥ مليون iPad على كل الطلبة، ومليون iPad على المدرسين، كخطوة نحو الاعتماد على أحدث تكنولوجيا داخل الفصل الدراسي، وهذه خطوة عملية نحو المستقبل.

ما أراه اليوم هو الضيق الشديد من الخطابة المدوية الوهمية، التي تأخذنا إلى الوراء خطوات نحو أوهامٍ نظرية غير قابلة للتطبيق، فمجلس الشعب الحالي وقيادات الإخوان والسلفيين لم نرَ منهم بصيصًا من الأمل، يمكننا من أنْ نتجه مع العالم المنتج نحو الأفضل، ولو جلس الشاطر مع أردوغان في نفس الفصل السياسي؛ لأصبح الشاطر في حالة حرجٍ شديد، إذ أنَّ الشاطر من فريق المتكلمين، وهذا فريق يتكلَّم ولا يحرز أهداف، أما فريق أردوغان فيتكلَّم حين يحين وقت الكلام، ويعمل معظم الوقت، فالشعب التركي لا يدعم أردوغان؛ لأنه أكثر إسلامًا من سابقيه، لكنْ لأنهم لمسوا نتائج ملموسة في أرض الواقع.. فهل نلمس شيئًا أم سيصرعنا السياسيين الحاليين بلمس الأكتاف، ويصبح الأمر أنه لا فِكاك من هذا المجهول ونقضي بقية العمر شعارات في شعارات.

(١٠)

خارج دائرة الحضارة

من المجحف أنْ نتصور توصيف شخصٍ ما في كلمة واحدة، فمهما كانت دقة الكلمة فلن تعبِّر عن الشخص بأي حالٍ، وحين نسمع عن مشروع قانون العزل وما ينص عليه، نجد فيه من عشوائية الفكرة ما يدعنا نتشكك في مدى الفهم السياسي الدقيق لمَنْ يمارسون السياسة في مصر.

هل القضية ترتبط بشخصنة القانون أم تجريد القانون؟ فالأساس في التشريع هو التجرُّد؛ لأنكَ حين تشرِّع، فأنتَ تحاول جاهدًا أنْ تصل إلى العدل المطلق، وتحاول أنْ تضع الآليات المناسبة؛ كى تساعدكَ في الوصول إلى غايتكَ، ومما نرى حولنا نجد أنَّ كل الأمور تبعدنا كثيرًا عن طريق العدل، وتوجهنا نحو قصورٍ مهني ووظيفي سوف يؤدي بنا إلى ظلمٍ بيِّن.

ففكرة قانون العزل السياسي فكرة شديدة الرقي، وأرى أنها حتمية بل يجب أنْ تكون جزءًا من الدستور المقبل، وذلك حرصًا على النزاهة، ومن أجل صالح الوطن، ومن هنا يجب أنْ يتم وضع المعايير الواقعية لممارسة العمل العام خصوصًا العمل السياسي، فيتم تحديد مقومات مَنْ يعمل بالسياسة والدور المنوط به، ومن ثَمَّ يتم تحديد متى يجب عزل أي سياسي، وذلك وفقًا لأمورٍ محددة،

منها ما يتعلق بالنزاهة، والأداء السياسي، وعدم استغلال المنصب أو إهدار المال العام، وبالطبع يستثنى الخطأ المهني؛ لأنَّ الجميع معرض للقيام بأخطاء مهنية، فهذا جزء أصيل من القيام بأي نشاطٍ إنساني، وحين يخطئ سياسي في تقدير أمرٍ ما، يجب ألّا نصفه بالخيانة والعمالة لدولة أجنبية أو ما شابه، وإلّا كنا جميعًا خونة وعملاء، وإذا تأملنا الموقف عن كثب فسوف يبدو لنا جليًا أنَّ "البلكيمي" و"أبا إسماعيل" أول مَنْ يجب عزلهما سياسيًا.

وحين يحكم ساسة الوطن الميل والهوى، فلن نخطو إلى الأمام بل سنهوى في هوة سحيقة، ولن يذكرنا التاريخ، سوف يذكر التاريخ دومًا نيلسون مانديلا؛ لأنه أحب وطنه "جنوب أفريقيا" أكثر من المصلحة الضيقة لمَنْ يشبهون لون بشرته، وقد أحبه البيض في جنوب أفريقيا كثيرًا، وقد اهتم بالنظر للأمام، ولم ينظر يومًا لتحقيق مآرب شخصية.

فى حلقة من برنامج حافظ المِرازي على قناة "دريم" استضاف النائبين عصام سلطان ونادر بكار ليتحدثا عن قانون العزل، واستضاف أيضًا مدير حملة السيد/ عمر سليمان، واحتج السيد/ عصام سلطان بأنه لم يبلَّغ بوجود مدير الحملة، وهو احتجاج منطقي ظاهريًا، وقد اتهم عصام سلطان في معرض حديثه السيد/ عمر سليمان بأنه قاتل، وهو لن يجلس مع قتلة، ثم انصرف غاضبًا ومعه "بكار" وذلك بعد مناوشات مع مدير حملة عمر سليمان، وبعض الحضور من مؤيدي عمر سليمان، والسؤال الآن هو: كيف نستضيف طرفًا اقترح مشروع قانون دون أنْ يأتي الطرف الآخر؛

ليعرض على الرأي العام وجهة نظره؟ ويحدث العكس كثيرًا في برنامج يسري فودة إذ أنه غالبًا ما يستضيف فريقًا واحدًا، يغني أغنية واحدة ذات لحنٍ واحد، وإذا كنا نريد بناء وطن، فعلينا أنْ نصبح أكثر دقة، وننحي الهوى والميل جانبًا، فقد نجد مخرجًا لعالم أكثر رحابة وتصالحًا.

ليس كل مختلفٍ خائنًا، وليس كل من تحدَّث باسم الدين هو الدين نفسه، يجب أنْ نفصل بين مَنْ يتحدث باسم الدين كشخصٍ وبين الدين، فالدين مجرَّد لمعتنقيه، أما الشخص مهما كانت درجته الدينية، ففي نهاية المطاف هو شخص يخطئ ويصيب.

فقد قال "بريخت" الكاتب الألماني: "تعسة تلك الأرض المنتظرة بطلًا" فهل نعي الدرس، ونتعامل مع الأفراد مهما علا أو قلَّ شأنهم كبشر، أم نستمر نكرر نفس الأخطاء والشعارات دون تأثيرٍ يذكر في حركة الكون، ونصبح بذلك خارج دائرة الحضارة التي تتعامل فقط مع الإنجازات، ونحن لا ننتج سوى بعض الكلمات؟.

(١١)

فقد أضاع ثلاثين سنة من عمره

"اعرف نفسك بنفسك"... هذه مقولة مكتوبة في معبد دلفى باليونان منذ أكثر من خمسة آلاف عام، ولكنْ يبدو أنها ليستْ جزءًا من الثقافة المصرية الحالية، ومَنْ يتأمل المشهد الضبابي الحالي، لابد أنْ يدرك مدى ابتعاد تلك المقولة عمَّا يحدث، ويبدو الجميع متلهفًا أنْ يلعب دور الرجل الأول، ومن ثمَّ قد يصبح الرجل الأوحد، وحين يعلم الفرد قدراته الحقيقية، فإنه يستطيع التفوق فيما يقوم به، ويصبح مهتمًا فقط بأنْ يقوم بما يجيد فيه.

فى حوارٍ تليفزيوني للدكتور زويل، كان يحكي عن مناقشة مع ابنه ذي الثقافة الأمريكية، حيث قال له الابن إنه سيقوم بدور نائب رئيس الفصل.

ويضيف د. زويل أنه بثقافته المصرية سأل ابنه: ولِمَ لا تقوم بدور رئيس الفصل؟

لكنَّ الابن الذي يحيا في ثقافة تحترم كل الأدوار، شرح للعالم الكبير كيف أنَّ لكل شخصٍ دورًا منوطًا به، وعليه أنْ يؤديه بكفاءة، فليس المهم أنْ تكون رئيسًا، المهم حقًا أنْ تكون كفوءًا.

والمعيار الأساسي ليس مسمى الدور الذي تقوم به في الحياة، المحك الحقيقي هو مدى التأثير والفاعلية التي تتحقق، وبالتالي يتأثر

الآخرون إيجابًا من خلال قيامكَ بهذا الدور، قد تعمل بأرقى الأماكن وأعظمها لكنكَ قد لا تترك أثرًا، قد تصبح رئيسًا لبلدٍ ما، يلعنكَ الشعب صباحًا مساءً، وقد تكون عاملًا في مصنع، يمدحكَ الكل طوال الوقت.

وحين يصرِّح د. أبوالفتوح بأنه سوف يقود ثورة ثانية، إذا تمَّ تزوير الانتخابات، سوف تجد في ثنايا ما يقول رفضًا ضمنيًا لاحتمالية فكرة هزيمته قبل أنْ يكون رفضًا لفكرة التزوير، إذ أنه وقبله أبو إسماعيل لا يقبلان فكرة الهزيمة، رغم أنها أحد مكونات الديمقراطية، فقبل أنْ نتحدث عن التزوير، وكأنه تهديد لكل مَنْ تسوِّل له نفسه أنْ يغضِّب أبا الفتوح وأبا إسماعيل، لابد أنْ نتحدث عن الآليات التي تتبعها الدول الكبرى لضمان نزاهة الانتخابات، وكان أولى بمجلس الشعب أنْ يأتي بأفكار جديدة، تعتمد على الخيال الخصب والإبداع؛ كي تساعد في وجود انتخابات نزيهة، بدلًا من لعبة السيطرة مع المجلس العسكري التي سيخسرها حتمًا، ولكنَّ الخاسر الأكبر في هذه الحالة، هو الشعب الذي يقوم بدفع أجور أعضاء مجلس الشعب من دخله المحدود، وقد كان بعض الناخبين لديهم أمل في تغييرٍ منظورٍ وملحوظٍ، لكنهم صدموا من هول قدرة الكتاتني وشركاه على إحياء الحزب الوطني من جديد، ومن آخر طرائف الكتاتني في المجلس أنه قرر تعليق الجلسات أسبوعًا دون أنْ يقوم بعدّ الأيدي بدقة حتى يتأكد من شرعية القرار، وقد سمعنا في بداية المجلس عن استخدام بعضًا من التكنولوجيا حتى يتسنى للسادة النواب أنْ يصوتوا آليًا، وليس برفع الأيدي، فكيف يطالب

بسحب الثقة من الحكومة، وهو في عجلة من أمره، وليس لديه حتى أسباب منطقية أو خطة بديلة، فمن الواضح انشغال الإخوان بأشياء كثيرة، ليس من ضمنها مصلحة مصر.

مَنْ يفشل عليه أنْ يبدأ من جديد، أنْ تفشل يعني أنكَ تحيا، الفشل جزء أساسي من عملية التنمية الحقيقية في الحياة، وهو يقودنا إلى تعلُّم أشياء جديدة، أشياء أكثر رحابة من أي شيءٍ آخر، وحين نعرف أنفسنا حقًا، ونعي تمامًا الدور المناسب لنا سوف نصبح حتمًا أكثر سعادة، حين نفكّر في مدى الاختلاف بين السياسيين قبل وبعد ٢٥ يناير، نتذكر مقولة الملاكم العالمي محمد علي "إنَّ الإنسان الذي يرى العالم، وهو في الخمسين من عمره كما رآه حين كان في العشرين، فقد أضاع ثلاثين سنة من عمره".. فهل السياسي المصري يُضيع حياته أم يُضيعنا نحن؟.

(١٢)

زيارة السيدة العجوز

في مسرحية "زيارة السيدة العجوز" لـ"دورينمات" تقع فتاة في حبِّ شابٍ من القرية، ويقيم معها علاقة، ثم يتخلى عنها، وتحاول اللجوء إلى القضاء لإجباره على الاعتراف بالجنين، لكنه يستخدم شهود زور ويهرب بفعلته، ثم تترك المدينة، وتعود بعد خمسين عامًا، وقد أصبحتْ شديدة الثراء، وكان معها كفن، وقد استطاعتْ فعليًا استمالة أهل القرية لها، ووعدتهم بالمال الوفير في حال قتل الحبيب السابق، ويبدأ أهل القرية في شراء أشياء كثيرة حيث إنها سوف تعطي لهم مبالغ كبيرة، ويقرر أهل القرية ضرورة قتله حتى يتسنى لهم أخذ الأموال، ويلجأ للشرطة فتتجاهله، ويذهب للقس لكنه لم يعره اهتمامًا، ويطلب منه أهل القرية أنْ ينتحر حتى يتسنى لهم الحصول على أموال السيدة العجوز، لكنه يقرِّر اعتزال أهل القرية، ويبقى وحيدًا حتى يموت، ثم ترحل كلارا إلى حيث أتتْ بعد أنْ تتأكد من أنَّ الحبيب السابق في العالم الآخر، وقد استطاعتْ بأموالها أنْ تفرض قانونها كما يحلو لها، وتوغل فكرة الانتقام في قلب كلارا لمدة تقترب من الخمسين عامًا، هو أمر مدمر لها قبل أنْ يدمر الآخرين.

فحين تسيطر فكرة الانتقام من الآخر على فكركَ، تجعلكَ لا تتقدم قيد أنملة، وتظل فكرة تدمير الآخر مسيطرة على عقلكَ، فتحيل حياتكَ إلى جحيمٍ، وحين تستخدم المال لتغيير إرادة الناخبين، فأنتَ تقوم بما قامتْ به السيدة العجوز.

وفى هذه المسرحية شديدة الواقعية التي تترجم الأنظمة السياسية حول العالم، وفى مصر تحديدًا حيث يتم العبث بالقانون كثيرًا تحت مسمياتٍ ضبابية، فيُطرح قانون معيب يسمى قانون العزل، تمامًا مثلما فُصِّلتْ التعديلات الدستورية في عهد الرئيس السابق ـ وكأنكَ يا أبو زيد ما غزيت.

وحين يجتمع المال والسلطة ليخرجا أسوأ ما في البشر، وحين اعتقد مجلس الكتاتني ـ سرور سابقًا وربما حاليًا ـ أنَّ عليه أنْ يصمم قوانين يستفيد منها التيار الإسلامى فقط في محاولة يائسة للاستيلاء على ما يستطيعون وضع أيديهم عليه، وحين تحاول الأغلبية في مجلس الشعب إصدار قانون لإعادة تشكيل المحكمة الدستورية، التي تتكون من عشرين قاضيًا من أهم القامات القضائية بمصر، سوف ندرك بما لا يدع مجالًا للشك كيف أنَّ هذه الأغلبية في المجلس "التيار الإسلامى" لا تبالي إلَّا بمصالحها الحزبية المؤقتة التي سوف تدفعنا دفعًا للخلف، وسوف نتذكر ما قاله المرشد العام للإخوان في حوار مع سعيد شعيب ردًا على قبوله فكرة أنَّ ليس لديه مانع أنْ يحكم مصر غير مصري مادام مسلِّمًا، وكان تعقيب عاكف "طظ في مصر وأبو مصر واللي في مصر" فهل نلوم المرشح الرئاسي دكتور أبوالفتوح؛ لأنه لم يستقل حينها بدافع

الوطنية، كما يلوم هو السيد/ عمرو موسى على عدم الاستقالة من منصبه اعتراضًا على ممارسات النظام السابق؟ لو كان كل وزيرٍ لا يرضى عن سياسة رئيس الدولة يستقيل لما بقي وزراء في مصر.

وحين يتهم دكتور أبوالفتوح الزعيم الراحل السادات بالانبطاح حين عقد معاهدة السلام مع إسرائيل، نجده يستخدم لغةً سياسية غير منضبطة، تتسم بعدم النضج السياسي، قد تتفق أو تختلف مع الرئيس الراحل، لكنْ حين نقوم بتحليلٍ سياسي لحدثٍ تاريخي محدد، يجب علينا وفقًا لتعريف السياسة الواقعية، وهي فن الممكن في الإطار التاريخي والزمني للحدث وفقًا للرؤية السياسية في هذا الوقت، وبحيث تتفق مع القدرات المادية والفعلية للدولة في لحظة اتخاذ القرار، وهذا ما لم يحدده لنا دكتور أبوالفتوح، وقراءة أبوالفتوح لذلك الحدث التاريخي لا تختلف بأي حالٍ من الأحوال عن قراءة عامة الناس، وغير المتخصصين في السياسة، وهي لغة غير سياسية وغير منضبطة، ومن الغريب أنْ يستخدم مرشح رئاسي اللُّغة بهذه الطريقة.

يقول دكتور زكي نجيب محمود في كتابه النفيس "حصاد السنين":
(عناء الكشف عن المجهول من سر الكون الذي يضن بنفسه أنْ يتبدى إلَّا لمَنْ سعى).

فهل نسعى نحو آفاق المستقبل الرحيبة أم نقبع في أوهام كثير من الكلمات الرنانة غير المنضبطة؟.

(١٣)

لكل شيءٍ تحت السماء وقت

أبسط ما يطلبه الإنسان في جميع أنحاء العالم هي الحُرِّية، أنْ يقرِّر ما يقوم به، من أبسط الأشياء إلى الأكثر تعقيدًا، ومهما حاولتَ تقييد الإنسان، فهو يحاول أنْ يتملَّص من القيود، مهما كانت بسيطة أو معقدة، وحرية أنْ تكون الشخص الذي تبغاه مهما حاول الآخرون إثناءك عن ذلك، هي روح الحياة ذاتها.

يحاول الكثيرون تخوين كل مَنْ يفكِّر في ترشيح الفريق شفيق، ووصفه بعدم الوطنية وخيانة الثورة، وعلى الجانب الآخر يحاول السيد/ محمد مرسي أنْ يظهر كثوري أصيل ومحارب للفلول، وهي كلمة لا تعني الكثير الآن، إذ فقدتْ أي معنى من فرط الاستخدام غير الواعي أو المنضبط، غير محدد الوجهة أو المعالم، وهذا يقترب بشدة من ذاك العالم العشوائي الذي نعايشه في مصر ليل نهار، ليس من حقِّ أي شخصٍ أنْ يتهم الآخرين بالخيانة؛ لأنهم اختلفوا عنه في الاختيار السياسي، من حقِّ كل مواطن أنْ يسأل كما يشاء، ويفنِّد كل ما يقوله المرشح، ويصف أداءه وفكره السياسي كما يحلو له، لكنْ ليس من المقبول أنْ يحدد شخص أنَّ الوطنية هي أنْ نختار السيد/ حمدين مع شديد التقدير له، فكل مواطنٍ يختار باعثًا وطنيًا، له كل الحقِّ في اختيار مَنْ يشاء، لقد قَبِلَ الناس

بالذهاب إلى صناديق الاقتراع، وعليه فلابد من قبول النتيجة مهما اختلفتْ مع ما نرغب فيه.

لا يستطيع منصف أنْ ينكر تاريخ شفيق الوطني والمهني، ومن الطبيعي والبديهي أنْ تكون للفريق شفيق نجاحات وإخفاقات مثله مثل كل الساعين إلى الإنجاز، ولكل مواطن مصري حرية الاختيار، عليه أنْ يفكّر بنفسه ويقرر ما يشاء، يختار شفيق أم مرسي، وكلٌّ له قناعاته ومبرراته، وإنْ قرر شخص ما حتى الامتناع عن التصويت فهذا حقٌّ أصيل.

لكنَّ القضية الآن هي احترامنا لبعضنا، حين لا نحترم إرادة وفكر الآخرين، ونخوِّن المختلف، فسوف نتأكد أنَّ الثورة تنتهي، فالثورة الحقيقية لم تكن في عزل مبارك، لكنْ كانت في ترسيخ الإيمان بالحُرِّية، حين يطالب الثوريون بالحُرِّية، فعليهم أولًا احترام إرادة الناخب مهما اختلفتْ عن إرادتهم.

لا يحق لـ "مرسي" أنْ يصف نفسه بمرشح الثورة أو مرشح ثوري، ومشاركة السيد/ مرسي في الثورة لا تجعل منه ثوريًا، فمن أهم أدبيات جماعة الإخوان المسلمين السمع والطاعة، وهل يمكن أنْ يخرج ثائر من جماعة تؤمن بتلك الفكرة، أو يرى الشعب المصري رئيسه يأتمر من المرشد، ثم يقبِّل يديه، هذا المرشد القائل بأنَّ منصبه أهم من منصب رئيس الجمهورية، فليتحدث مرسي كما شاء عن خططه وإنجازاته وفكره السياسي، لكنْ من غير المنطقي أو المقبول أنْ يتحدث عمَّا لا يملك: الروح الثورية.

الثورة ليستْ هتافًا هنا وهناك، الثورة فعل يؤدي إلى تغييرٍ إيجابي، ويستلزم معه جهدًا جهيدًا، وتخطيطًا وهدفًا قابلًا للتحقيق، لم يكن د. زويل، وم. هاني عازر، ود. مصطفى السيد، ود. مجدي يعقوب، ود. فاروق الباز في ميدان التحرير، لكنَّ هؤلاء ثوار حقيقيون، لكل شيءٍ تحت السماء وقت، للثورة وقت وللبناء وللتنمية وقت، وعلينا اختيار.. ماذا نحن فاعلون؟.

(١٤)

لا بد من عرضه على طبيبٍ نفسي

حكى لي صديق مصري يعيش بألمانيا مع أسرته عن زيارة من صديقٍ مصري حيث قاما معًا برحلة، واستقل كلٌّ منهما سيارة مختلفة، وقام الصديق الزائر بالقيادة، لكنه أخطأ في الطريق، وكي يقوم بتصحيح الخطأ رجع بسيارته في عكس الاتجاه، وتمَّ إرساله للمحاكمة، فماذا قال القاضي الألماني؟.

" يجب عرضه على طبيبٍ نفسي" هذا ما قاله القاضي الألماني، الذي كان في حالة عدم تصديق من أنْ يقوم شخص بالسير للخلف عكس الاتجاه، وحمدًا لله أنه لم يأتِ إلى مصر، وشاهد كيف نتعامل مع قيادة السيارات، وكيف يغيب المنطق في معظم الممارسات الحياتية الأخرى.

يشارك في الانتخابات ١٣ متسابقًا لمنصب الرئاسة، يتقدم اثنان في السباق، فيقوم صاحبا المركز الثالث والرابع بالمطالبة بمجلس رئاسي يضم الخاسرين.

يحاول التيار الإسلامي التخلُّص من المرشح الرئاسي أحمد شفيق، فيقومون بعمل اختراع هلامي عبثي، يطلقون عليه قانون العزل، وهو يفتقد لأبسط قواعد التشريع القانوني، وهما: التجريد والعمومية، وليس التفصيل والانتقاء.

يحاول أنصار مرسي الدعاية له بالهجوم الضاري على شفيق، فتزداد شعبية شفيق.

يحاكم مبارك وآخرين أمام القضاء، لا يقتنع البعض بالأحكام فيلجأوا للميدان، فهل كلما واجهنا مشكلة أو اختلافًا سياسيًا سوف نلجأ للميدان؟ هل هي تلك الآلية الثورية؟ لابد من وجود آلية محددة لكل الممارسات سواء كانت سياسية أم إدارية، لا أدري وأعتقد أني لن أعرف أبدًا.. لماذا الكثير من أعضاء مجلس الشعب يصيحون ويخطبون، وكأنهم يحثون الشعب على القيام بحربٍ مقدسة ضد كل الأشياء؟ وكأنَّ المناقشات البرلمانية التي من المفترض أنْ تكون رصينة ومنطقية، ما هي سوى خناقة على مقهى، اللُّغة المستخدمة في مجلس الشعب لا تليق أبدًا بمجلسٍ منوط به التشريع.

حين يرفض دكتور مرسي الإجابة على سؤالٍ افتراضي"ماذا ستفعل إذا فاز المرشح الآخر؟" فيصرُّ أنَّ هذا لن يحدث، وهذا مؤشر في منتهى الخطورة، وهو رفض فكرة الهزيمة في حد ذاتها، ففي اللُّعبة السياسية توجد عوامل كثيرة تحدد وجهة الناخب، ولننح المال السياسي والابتزاز الديني جانبًا، لكنْ يظل الناخب المصري حالة خاصة، وله معطيات خاصة به، وسوف تصوِّت شريحة عددية كبيرة فقط وفقًا لضميرها الوطني.

لم يتحدث أحد عن مسئولية عصام شرف عن أحداث ماسبيرو ومحمد محمود، أو مسئولية الجنزوري عن أحداث بورسعيد، لكنَّ شفيق هو المسئول الأوحد عمَّا يسمى إعلاميًا موقعة الجمل.. أين المنطق؟.

أنْ يرفض مجلس الشعب قرض البنك الدولي المخصص للصرف الصحي تجنبًا للربا، نحن أمام كارثة حقيقية.

ومما سبق سوف يتبدى لنا مدى الخلل النفسي، وعدم الاتساق الذي يعاني منه كثير من الساسة في الوقت الراهن، فلن نتقدم خطوة واحدة للأمام حتى يتسق الكثيرون مع ذواتهم، وينسى الكثير منهم الذات المتضخمة التي ترفض الهزيمة بأيَّة حالٍ، فالهزيمة لصباحي وأبي الفتوح يفسروها بتزوير الانتخابات، وإذا فازوا فإنَّ الانتخابات نزيهة.

فهذا التفسير الانتقائي للأحداث لا يدعو بأيَّة حالٍ للتفاؤل، وقد ينتهي بنا الحال كالمواطن المصري، بأنْ يحكم علينا القاضي الألماني بالتالي"يجب العرض على طبيبٍ نفسي".

(١٥)

حلاوة طحينية

ماذا تفعل لو ذهبتَ لشراء ربع كيلو من الجبن الرومي، فتسأل البائع: هل لديك جبن رومي؟.. فيرد عليكَ: عندي حلاوة طحينية!.. فتحتار لفترة، ثم تركّز قليلًا وتفكّر، فتدرك أنَّ هذا ما يترجِّم الوضع السياسي في مصر، تسأل سؤالًا، فتجد إجابةً مختلفةً تمامًا، فقد قام مجلس الشعب المنحل بتكوين اللجنة التأسيسية للدستور، وتمَّ حلها؛ لأنَّ تكوينها غير دستوري إذ يهيمن عليها فصيل سياسي واحد، ومن ثمَّ فإنَّ التيار الإسلامي لن يصبح مجرد طرف في تكوين الدستور بل المتحكّم، وهنا مكمن الخطر، فيعيد التيار الإسلامي نفسه، نفس التكوين السابق الذي يكرِّس فكرة الهيمنة، ويدعي بعد ذلك أنه يريد مشاركة لا مغالبة، قد نجد عذرًا لصاحب محل البقالة أنه يريد بيع الحلاوة الطحينية، فمهما طلبتَ فإنَّ تركيزه التخلُّص من الحلاوة، لكنْ.. ما هو عذر التيار الإسلامي؟.

أنْ تخطئ في عالم السياسة، هذا أمر وارد ومفهوم، أما أنْ تعيد نفس الخطأ بنفس الآلية، فهذا ما يثير الشك والظنون، وتقوم المحكمة الدستورية العليا بحلِّ مجلس الشعب، فيذهب المستشار الخضيري وغيره يطرقون أبواب المجلس، مع أنه يعلم قانونًا أنه لا يستطيع الدخول!.

وينسحب موضوع البقالة على باقي الأُطروحات السياسية في الساحة، حيث مازلنا نركّز في الأشخاص، ولا نعبأ كثيرًا بالآليات، فالآلية الصحيحة في الممارسة السياسية، هي ما تقوم بخلق واقع سياسي قوي ورصين، أنْ يصبح الرئيس في سدة الحكم لفترة محددة بأربع سنوات قابلة للتجديد مرة واحدة، تلك هي الآلية، فمَنْ يأتي سوف يحاول جاهدًا خصوصًا في الفترة الأولى أنْ يثبت مدى الكفاءة حتى يتم انتخابه لفترة ثانية، أما الذهاب للتحرير لتغيير الواقع السياسي، فقد أصبح يزيد الأمور تعقيدًا، ويثير الشكوك حول مدى الفِهم السياسي لذاك الفريق السياسي، إذ أنَّ المبادئ السياسية الأولية ترتبط بالقدرة على التواصل والتفاوض، أما ما يحدث من استغلال الميدان من آنٍ لآخر ما هو إلّا ابتزاز سياسي، سوف يزيد الأمور اشتعالًا، ويشرح لنا أيضًا مدى القصور السياسي في الوضع الراهن، وعدم قدرة كثير من الفصائل السياسية على بناء الثقة مع الأطراف الأخرى، مما ينذر بأزماتٍ متلاحقة، ومن الواضح أنَّ التيار الديني مع حركة ٦ إبريل يراهنان على ميدان التحرير الذي لا يمكن أنْ يصبح آلية سياسية دائمة، ومن الواضح أيضًا أنَّ استخدام الميدان قد أصبح عبئًا على الحياة اليومية للمواطنين.

وهذا يفسِّر أيضًا نجاح د. مجدي يعقوب، د. زويل، د. مصطفى السيد، م. هاني عازر، د. الباز، وغيرهم، حيث إنهم يعملون في ثقافات وحضارات تؤمن بالفرد وجهده، وتوظّف الآلية المناسبة للنجاح في الحياة العملية، فتكتشف قدرات الفرد، فيعرف نفسه جيدًا، ومن ثمَّ لا يرضى بغير النجاح بديلًا.

بيل جيتس لم يُكمِل تعليمه، ولكنه من أهم الشخصيات المؤثرة في العالم، فالنجاح يحتاج رؤية، ليستْ القضية أنْ تعمل بأهم جامعات العالم، أو أهم المؤسسات الكبرى، ولكنْ في مدى التأثير الذي تستطيع القيام به، لم يدرك الإخوان المسلمون، وشركائهم السلفيون بقيادة المتحدث الرسمي "بكار" تلك الفكرة، حين طلُّوا علينا في المجلس الموقر، ففقد المجلس هيبته، وبات صرحًا من خطبٍ عصماء لا تحل ولا تربط، ليستْ القضية هنا أنْ تكون الأكثرية أو الأغلبية بالمجلس أو أي نشاطٍ إنساني آخر، بل أنْ تكون مؤثرًا وفعالًا، وهذا ما لم يحدث، وفي ظني أنه لن يحدث إذا ظل الفكر الاستحواذي مسيطرًا على الإخوان، وظل البقال يعطيكَ حلاوة طحينية حين تسأل عن الجبن الرومي.

(١٦)

فرسان هذا العصر

"لسه الأغاني ممكنة"...

هكذا غنَّى منير، من كلمات كوثر مصطفى في أحد أجمل أفلام شاهين "المصير" وهكذا نحتاج أن نغني في كل أوانٍ وزمانٍ، "أعطني الناي وغني، فالغنى سر الوجود" غنتْ فيروز، من كلمات جبران خليل جبران، وقديمًا قال شكسبير: "لا تثق في أحدٍ لا يستمع إلى الموسيقى" فالموسيقى هي جوهر الحياة، وهي الدافع النفسي لمواجهة تلك الهجمة الشرسة من الكآبة التي تحيط بنا من كل جانب، وإطلالة السياسة والساسة علينا من كل وجهة وطريق، فأصبحنا محاصرين مقيدين في عدة دروب وكأنه لا فِكاك، ويكاد يصرخ المواطن العادي مستغيثًا "كفاية سياسة كفاية كلام" والشعوب التي تغني، هي شعوب قادرة على الحياة والمقاومة، هي شعوب قادرة أنْ تحوِّل مشاكلها وأحزانها وقضاياها إلى فنٍ جميلٍ، وهذا هو الإبداع، والشعوب المبدعة لا تهزم أبدًا، والمصريين يجري في دمائهم الفن، فنحن لدينا أقدم صناعة سينمائية في العالم العربي وأفريقيا، فثقافة الإبداع جزء راسخ في شرايين المصريين.

الفن يطلق الروح نحو آفاقٍ قادرة على تطهير الذات من الحقد والكراهية، إنني شديد الثقة أنَّ حجم التطرف الديني في أي مكانٍ

بالعالم يرتبط ارتباطًا وثيقًا بمدى الجهل من ناحية, وأيضًا بمدى انحسار الفنون من ناحية أخرى، لم نعرف في تاريخ التطرف الديني في مصر حتى الآن متطرفًا دينيًا، كان يعزف على البيانو، أو يذهب للسينما، أو كان محبًا للفنون، فتلك الخصومة شديدة الوضوح بين التطرف والفن، لابد وأنْ تجعل الحكومة الجديدة الفن من أهم أولوياتها، فإما أنْ تهتم الحكومة الجديدة والرئيس الجديد بالفنون، وإلَّا شككنا في وجود خصومة ما بينهما وبين الفنون، ولو اهتمتْ الحكومة المصرية الجديدة بالفنون داخل المدارس بطريقة جدية، وأصبحتْ جزءًا من التكوين النفسي في بناء الشخصية المصرية، فسوف تزداد احتمالات أنْ نصبح جزءًا من العالم المتحضر، وسوف يوضح لنا ذلك ماهية أولويات الحكومة الجديدة، والتوجهات العامة لديها، وما هو دور الفنون في بداية عهد الرئيس المنتخب محمد مرسي.

في جلسة مع بعض الأصدقاء، حكى لي شخص على معرفة بالفنانة الراحلة أمينة رزق أنها في أيامها الأخيرة، قد كانت في شدة الضعف والمرض لكنها كانت تتحول لشخصٍ آخر عندما تدخل الاستوديو، وتمثّل، فتصبح في حالة توهج، وتبدو أكثر قوة ونشاطًا، وإنْ دل ذلك على شيءٍ ما، فإنه يثبت مدى تعمق الفن في حياة الفنان الحقيقي، وقيمة الفنان الكبير تتعمق أيضًا في قلب مجتمعه، فالفن مستوطن في جذور المصريين.

الفنان الحقيقي فارس يبحث عن الحُرِّية الحقيقية، الفنان الحقيقي محرابه الفن، ويسترد روحه فقط حين يبدع، والمجتمع الصحيح

نفسيًا يشجِّع الفنون، كافة الفنون، الفن باقٍ ما حيينا مؤثرًا ومعلِّمًا، فهل لدينا اليوم فارس، أم سنردد مع "نجيب سرور" "فرسان هذا العصر هم بعض اللصوص".

(١٧)

العم جُحا

من أجمل الروايات التي سمعناها صغارًا قصة جحا، حين ركب حماره بينما سار ابنه على رجليه، فقال الناس: هذا أب غير رحيم.. كيف يترك صغيره يسير في شدة الحر؟

ومن ثمَّ قام جحا بالسير، وركب ابنه الحمار، فما كان من الناس إلَّا أنْ قالوا: طفل عديم الأخلاق.. كيف يترك أباه كبير السن يسير ويركب هو الحمار؟!

وعليه فقد قام جحا وابنه يسيرا معًا، ويجرا الحمار فما كان من الناس عندئذ سوى نعتهم بالغباء؛ لأنهما لا يستخدما الحمار، وحينئذ فقد جحا أعصابه، وقام هو وابنه بحمل الحمار، فصاح الناس: هؤلاء الناس مجانين.

وتلك القصة تذكرنا بالمأزق السياسي المصري للرئيس الجديد مرسي، فحتى الآن لم تتضح، وربما لن تتضح لنا معالم واضحة لاتجاهات الرئيس الحالي، فهو محاصر وغير محاصر، حر طليق ومقيد أسير، وهو يحدِّث نفسه، ويقول: قد يغضب إخواني الإخوان أو أولاد العمومة السلفيين، ولماذا أزعج الأقباط، وقد يضطرب الليبراليين، وقد يهاجمني اليسار، ولابد أنْ يكون المجلس العسكري معي على وفاق.

وتلك هي المشكلة، تلك هي الكارثة، لم ندرك حتى الآن الاتجاهات، المسار الفكري، الرؤية.

محاولة إرضاء أو ترضية بعض الأطراف ما هي إلَّا امتداد للفكر التلفيقي غير المستقل، لسنا في حاجة إلى مزيدٍ من التربيطات والموائمات، ما نحتاجه في هذه اللحظة الآنية هو بناء دولة.

في أول لقاءٍ لرئيس الوزراء نوبار مع محمد علي باشا، قال له: اعمل حتى أراك تعمل.
فهل نرى الساسة في مصر تعمل ولا تتكلَّم بعد اليوم؟.. أشك.

يقول بسمارك المستشار الألماني: (جوهر الأشياء هو عمل التاريخ، وليس كتابته)... وما نقوم به دومًا هو الكتابة، وليس صناعة الأحداث والتاريخ، وكثيرًا من الكذب أو إخفاء التاريخ وتشويهه، فبأي منطقٍ يقوم عبد الناصر في عام ١٩٦٦م بنقل تمثال نوبار باشا من حديقة الشلالات إلى ممر في متحفٍ صغير، ثم يوجد الآن بمسرح سيد درويش، قد نختلف أو نتفق مع نوبار باشا، لكنْ لا نستطيع أبدًا محو تاريخه، وقد قام نظام ناصر أيضًا بإلصاق كل التُّهم الشنعاء، وغير الشنعاء بالعائلة المالكة، وقد يكون بعض ما ذُكِرَ صحيح إلَّا أنه محا كل ما هو إيجابي، وبنفس المنطق أيضًا يحاول الجميع طمس كل ما قام به مبارك، وقد قام مبارك نفسه باستخدام نفس المنهج في أواخر حكمه، بمحاولة تضخيم دوره في حرب ١٩٧٣م إلى درجة، قد يبدو فيها دور مبارك وكأنه يلتهم وينحي بقية الأدوار بدءًا من دور الزعيم الراحل أنور السادات إلى أدوار كل مَنْ ساهم في هذا النصر العظيم، ثم تجد بعض

الناصريين يهمشون من أهمية حرب ١٩٧٣م، ويصفون معاهدة السلام بالخيانة، وكل محاولة لطمس التاريخ ما هي إلَّا منهج فاشي ديكتاتوري، يمحي الآخر من التاريخ معتقدًا أنه بذلك يصنع تاريخًا، والحقيقة إنَّ صناعة التاريخ تتعلق فقط بالإنجازات،وليس بالكلمات.

و السؤال الآن:

كيف نصنع التاريخ الحالي وسط كل هذا الصراع؟ إذ أنَّ الصراع لا يؤدي في النهاية إلَّا إلى تفتيت القوة، وزعزعة استقرار وطن بات مهددًا بشخصنة الأمور، وتعزيز غريزة انتقام الفصائل السياسية المتناحرة.

سؤال إلى العم جحا: هو انتي بتشتغلي إيه؟...

الله يرحم الست ماري منيب.

(١٨)

أضخم كتاب في الأرض

علم اللوع أضخم كتاب في الأرض

بس اللي يغلط فيه يجيبه الأرض

هذا ما قاله صلاح جاهين في واحدة من أشهر رباعياته، وربما كان يحذر كثيرًا من السياسيين في كل العصور، إذ أنَّ اللوع والمراوغة والالتفاف على الحقائق يعدون الأساليب الأكثر حضورًا في عالم السياسة اليوم وأمس وغدًا.

يصدر السيد رئيس الجمهورية/ محمد مرسي قرارًا يسحب به قرار حل مجلس الشعب الصادر عن المحكمة الدستورية، هذا موقف سياسي، يختلف الكثير معه ويتفق معه آخرون، ولكنْ حين يخرج علينا المتحدث الرسمي للرئيس، ويقول: إنَّ قرار السيد الرئيس بعودة المجلس ما هو إلَّا تطبيق لقرار المحكمة الدستورية... فتجد عقلكَ غير قادرٍ على التصديق، وفيما يبدو أنَّ السيد الرئيس ليس من محبي صلاح جاهين، ويبدو أنَّ مستوى اللوع لم يرقَ بعد إلى الحد الذي يستطيع به أنْ يقنعنا، ثم يوافق الرئيس على قرار المحكمة الدستورية التالي لقراره بسحب الثقة، وكأنه كان يملك الرفض.

يتحدث أردوغان عن حقوق الشعب السوري في الحُرِّية، ونسي أنَّ الأكراد في تركيا لا يعاملون كمواطنين من الدرجة الأولى، فهل ركز قليلًا فيما يحدث للأكراد؟.

يرفض أردوغان أنْ تعتبر فرنسا ما قام به الأتراك تجاه الأرمن في عام ١٩١٥م مذبحة، ويتحدث عن المذابح التي يقوم بها نظام بشار!.

رحب الإخوان بأردوغان حين جاء لمصر، لكنْ حين صرح بأنَّ تركيا دولة علمانية، باتتْ مشاعرهم تجاه أردوغان باهتة، وكأنهم يلومون أردوغان على اتساقه مع سياسة تركيا.

يقسم السيد الرئيس على احترام الدستور والقانون، وهذا شيء عظيم، ولكنه يقسم ثلاث مرات، فهل مرة واحدة ليستْ كافية؟!.

يصرح السيد/ الكتاتني، للإعلامي/ خيري رمضان: "المجلس راجع"، هذا وإنْ دل على شيءٍ إنما يدل على أنَّ العائلة الإخوانية دائمة الانعقاد، ولم ينسلخ عنها السيد الرئيس بعد!

يصرح الإخوان المسلمون مرارًا وتكرارًا نريد مشاركة لا مغالبة، وفي كل موقف يمثّل العمل الجماعي تصبح الهيمنة سيِّدة الموقف، واللجنة التأسيسية للدستور الثانية تشبه الأولى إنْ لم تكن أكثر سوءًا.

يتحدث الإخوان عن ترحيبهم بالدولة المدنية، وينقلبون على ذلك ويصممون أنْ تخرج وثيقة الأزهر بتعبير ديمقراطية حديثة، وكأنَّ كلمة مدنية كلمة مسيئة يعاقب عليها القانون.

يطالب الإخوان بعدد من الوزارات مع أنَّ مجلس الشعب يعد باطلًا، ومن ثمَّ فالنتائج المترتبة عليه باطلة، ومن ثمَّ لا يمتلك الإخوان الأكثرية التي كانوا يتحاكون بها ليل نهار، ففي هذه اللحظة الآنية لابد وأنْ يطالب الجميع بحكومة تكنوقراط، كفانا صراعًا وتقسيمًا للغنائم، وإلَّا سوف تكون العاقبة هي اختفاء الغنيمة، وبقائنا نحن نقاتل بعضنا البعض على فتاتٍ نكاد لا نراه، لا نعرف.. متى سوف يدرك الساسة بمصر أنَّ للعمل وقت؟ فدائمًا العمل يسبق تقسيم الغنائم، وأنتَ لا تستطيع مهما كنتَ تعتقد أنكَ سوبر مان أنْ تحصد دون أنْ تزرع، والخوف كل الخوف أنْ ينطبق علينا ما قاله جبران خليل: "الويل لأمة تلبس مما لا تنسج، وتأكل مما لا تزرع، وتشرب مما لا تعصر".

ففي ما يقرب من العام ونصف العام، لم ننجز سوى بضعة وعود وعدة كلمات، ولم يخرج إنجاز يحسب لأي فريقٍ سياسي إلى النور بعد، فهل كففنا عن تقسيم الغنائم، ونظرنا للمستقبل؟ حيث يتسابق العالم نحو الإبداع والإنتاج، أما نحن فنسير خلفًا.

لكنَّ الشيء الواضح للعيان أنَّ كتاب علم اللوع هو الأكثر مبيعًا اليوم وكل يوم، فهل تخلصنا من دار النشر التي تعيد طباعته كلما فرغ من الأسواق؟!.

(١٩)

السياسي المحترف

الرَّسَّام الهولندي الكبير "رمبراندت" كان يعشق الفن عشقًا فريدًا، وكان يصرف ما يكسبه من الفن على الفن، وحين تقدَّم به العمر، ولم يمتلك المال الكافي لشراء الأدوية والغذاء، قام تلاميذه بمساعدته ماليًا، فلم يستخدم المال في شراء الأدوية، وإنما في شراء الألوان؛ ليستمر في الرسم، وهذا العشق لما يعمل، هو ما يجعلكَ تفكِّر فيما يحدث في المشهد السياسي المصري الحالي، وتقارنه بالماضي القريب والبعيد، والقارئ للتاريخ المصري بإمعانٍ يدرك مَنْ هو السياسي المحترف، ومَنْ المتداخل في أمرٍ لا دراية له به، وقبل كل هذا يدرك الفرق بين ما هو ديني وما هو سياسي، يعرف عن ماذا يتكلَّم؟ وما مدى معرفته وإلمامه به؟ ويسأل حين لا يعرف، ويقرأ كثيرًا حتى يعرف.

السياسي المحترف هو مَنْ يدرك أبعاد المشهد السياسي، أبعاد القوة ونقاط الضعف، ويدرك تمامًا مَنْ هو في ذلك المشهد، ما يستطيع أنْ يسهم به، وما لا يستطيع القيام به، ولو كنتُ في مكان الرئيس الحالي لفكرتُ بطريقة سياسية احترافية في اختيار الحكومة، فهل سيفعل ذلك السيد الرئيس؟.. أشك!.

فالرئيس الحالي أبعد ما يكون عن الفكر الاحترافي، وأقرب ما يكون للتلفيقية والتقية كآلياتٍ للعمل السياسي، وحقيقة الأمر أنَّ هذه الطريقة لن تكوِّن أي مدرسة سياسية جديدة، ولن تؤسس لأي منهجٍ سياسي قد يذكر في التاريخ السياسي المصري.

يتبرع السيد الرئيس بإرجاع الصحفية شيماء عادل، مع أنَّ الأمر من البساطة مما كان أنْ تقوم به الخارجية المصرية.

حين يصدر الرئيس الحالي قرارًا بالإفراج عن المتظاهرين أمام السفارة السورية الذين حاولوا اقتحامها، كيف نفسر هذا القرار؟.

الرئيس يدعم الثورة السورية؛ لأنها بالأساس إخوانية، ولماذا لا يدعم هؤلاء "الثوار" المتظاهرين الشيعة في البحرين؟ أو يتظاهرون أمام السفارة السودانية؟.

السياسي يأخذ قراراتٍ سياسية، أما المقحمون في السياسة فيأخذون القرارات إما وفقًا للهوى، أو الانتماء الديني، أو أشياء أخرى.

وما شاهدناه في مجلس الشعب المنحل خير دليلٍ على مدى قصر النظر وانعدام الرؤية، فكثير من هؤلاء لم يدروا ما كانوا يفعلون، ولن يدركوا مهما طال الزمن.. ماذا هم فاعلون؟.

الاحتراف يبدأ بالعشق، ومَنْ يعشق يبذل جهدًا كبيرًا حتى يتحقق له ما يريد، والسياسي المحترف عاشق بدرجة امتياز، والعشق هنا هو الجهد في المجال، حين يجتهد العشاق لا يعبأون بالجهد أو الوقت، ويكون الهدف الأول والأخير هو السعي نحو الامتياز، ولم نرَ حتى الآن أي سعي نحو أي شيءٍ، فمعظم السياسيين الحاليين يستحوذ

عليهم فكرة الهيمنة، وانتصار الفريق المنتمون إليه، فالإخوان يناصرون الرئيس مهما قال، والإخوان مجموعة سياسية متلاحمة تحاول جاهدة الهيمنة، وبأي حق ومنطق يقف شباب الإخوان يوم إصدار الحكم على اللجنة التأسيسية للدستور، وقرار حل مجلس الشعب محاولين اقتحام المحكمة، ويتهم محامي الإخوان قضاة المحكمة الدستورية بالتزوير، أليس ذلك أحد أشكال البلطجة السياسية، التي تتماشى مع ما يقوم به الإخوان الآن؟.

في عصر محمد علي قتل شاب مسلّم شابًا مسيحيًا، وألقى بجثته في الماء، وتمَّ اكتشاف الجريمة، وحُكِمَ على الشاب المسلّم بالإعدام، وحين سيق الشاب لإعدامه هاجتْ وماجتْ بعض الجماهير، وهددوا بقتل مسيحيين آخرين، فما كان من طاهر بك رئيس البوليس إلّا أنْ أبلغهم بأنَّ الوالي أمر بقتل مَنْ يبدي أدنى ملاحظة، فانصرفتْ الجموع واختفتْ.

وهنا سيادة القانون واضحة، فالرئيس يحكم بالعدل، وليس وفقًا للهوى والميل الديني، وتلك هي رسالة بسيطة من الوالي محمد علي إلى الرئيس مرسي، فهل يستمع؟.. أشك كثيرًا.

(٢٠)

مَنْ يكتب التاريخ؟

في فيلم "سوبر ماركت" لـ"محمد خان"، يبلور لنا وجهة نظر قاسية في الحياة، وهي أنَّ كل شيءٍ قابل للبيع بما في ذلك البشر، والمتأمل للمشهد السياسي العالمي لابد وأنْ يرى مدى تطابق المنطق ذاته في المشهد السياسي.

حين نرجع بالتاريخ قليلًا، نجد د. زكي نجيب محمود يعلّق على دور الأمم المتحدة في اتخاذ القرارات، وحل المشاكل بقوله: "حين تكون للدول الكبرى إرادة ما تذهب بها إلى اجتماعات الأمم المتحدة، وتكون المهارة السياسية في صياغة لغوية مقبولة شكلًا لدى الأطراف المتصارعة، أما مسألة حل النزاع فهي أمر غير وارد، وليس في الحسبان".

والمتأمل لما حدث في ميدان بكين السماوي في ١٩٨٩م من دهس للطلبة والعمال الصينيين على يد الحكومة الصينية، وعدم قدرة أي قوى على أنْ تتدخل بأكثر من التنديد والشجب بما في ذلك القوى العظمى، يدرك ببساطة مبدأً سياسيًا واقعيًا، وهو متعلق بالأساس بمدى القوة السياسية المستمدة أساسًا من القوة العلمية، والعسكرية، والاقتصادية في تلك الدول، ولأدرك أيضًا مدى الكارثة القائمة في كثيرٍ من دول الخطابة العربية، التي يسهل بها الحديث الدائم عن

العدل والحُرِّية والسلام العالمي، وهي دول أبعد ما تكون عن ذلك في أرض الواقع.

القرار السياسي المستقل لا يرتبط بمدى الوعي بفكرة الاستقلال أو وجود تلك الفكرة، فهذا أسهل ما في الموقف السياسي، ولكنَّ وجود خطة استراتيجية واضحة مع وجود آليات تنفيذ لتلك الخطة ذلك هو المحك الحقيقي، الدول غير المتقدمة علميًا وبالتالي اقتصاديًا، ومن ثمَّ عسكريًا، لن تستطيع أنْ تفرض ما تريد حتى وإنْ كان حقًا، فلم تستطع مصر أنْ توقِّع معاهدة السلام مع إسرائيل إلَّا بعد انتصار أكتوبر١٩٧٣م، ليس لأنَّ لديها الحق في سيناء، فذلك آخر ما يهتم به العالم.

فنحن نغض الطرف عمَّا حدث في دارفور من نظام البشير، وعدم التعليق على مظاهرات الطلبة السودانيين ضد سياسات الحكومة التقشفية، ولا يتظاهر أحد لمساندة تلك المظاهرات.

وتتعامل كثير من الحكومات في العالم مع قضية مظاهرات البحرين وكأنها لا توجد، وتحاول كثير من دول العالم حسم خلافاتها على أرض سوريا، فمن السذاجة بمكان أنْ نترجم الموقف في سوريا على أنه فقط انتفاضة شعبية، فهو صراع إرادات ومصالح دولية يتم في سوريا حتى تتجنب تلك الأطراف المواجهة المباشرة، وللأسف يموت الكثير لأسبابٍ معتقدين أنهم يعرفونها.

لو فكرنا للحظات لأدركنا بسهولة، كيف تتعامل القوى الكبرى مع كل قضية على حده بما يتناسب مع المصلحة الوطنية، لنتأمل قليلًا

الموقف من مظاهرات ليبيا، وما يحدث في سوريا والبحرين، وقد نرفض المواقف الدولية جملةً وتفصيلًا، ونعتبرها مزدوجة المعايير، وهذا خطاب إعلامي يتسم إلى حدٍ كبير بعدم الدقة، إذ أنَّ التفسير السياسي لمواقف الدول الكبرى يتفق مع الحتمية التاريخية، ومن ثمَّ علينا أنْ نتعامل بنفس المنطق، وحيث إننا عبر التاريخ لا نجد سوى إرادة المنتصر، فلابد أنْ يكون التفكير السياسي متسقًا مع الواقع، فليس من المنطق بمكان أنْ نتحدث عن الإخوة العربية، حيث إنَّ هذا كلام يبتعد كثيرًا عن المنطق السياسي، والأجدى أنْ يكون الحديث عن المصالح المشتركة، والمعضلة الكبرى في العالم العربي اليوم، هي الخلط والارتباك السياسي الذي سوف يؤدي حتمًا إلى مزيدٍ من الضعف.

ولو تأملنا قليلًا سوف نجد غياب إرادات جماعية بالعالم العربي الذي يبدو فقط مستقلًا، لكنْ.. هل هو كذلك؟!.

(٢١)

لم نحرز أهدافًا بعد

"ليس الأقوى أو الأذكى هو القادر على البقاء، بل الأكثر تكيُّفًا مع التغيير"... هذا ما قاله داروين منذ زمنٍ بعيد، والعالم يتغير حولنا بسرعة غير معتادة، ومازلنا نستخدم كثيرًا من الأفكار القديمة التي لا تتناسب مع الزمن الحالي، أو أي زمنٍ مستقبلي.

تكلّفتْ الرحلة الأخيرة للمريخ حوالي المليارين ونصف المليار دولار في رحلة استُخدم فيها جهاز بحجم السيارة الصغيرة، وذلك لتحليل عينات الصخور، واستكشاف ما إذا كانت توجد أيَّة علامات للحياة على سطح المريخ في أي وقتٍ مضى، وسوف يستغرق التحليل هذا مدة عامين، وبنظرة متأنية على كيفية التعامل الجاد مع العلم، ومدى أهميته الحقيقية في الحضارات التي أنجزتْ، ومازالتْ تنتج الكثير، سوف نعرف مدى قصور الرؤية، واحتمالات انعدامها في القريب العاجل.

التفاني في العمل وبذل الجهد، هما السمتان الأساسيتان للمبدعين والقادرين على تغيير العالم، ونظرة عن قرب للمشهد المصري، سوف نرى بوضوح صراعًا سياسيًا عقيمًا، وسبب العقم معلوم يقينًا، الكل ضد الكل، الكل يعمل لصالح فريقه، ولم يتكون الفريق

القومي بعد، ينبغي أنْ يتكون الفريق القومي من أفضل لاعبي الوطن، ولا يتكون من أصحاب وأقارب العريس.

الفريق الأول يرأسه الرئيس الحالي، ومعه فريق يدافع عنه طوال الوقت، يبرر ويشرح ويهاجم ويدافع، ومع ذلك لا يحرز أيَّة أهدافٍ لصالح مصر، فكل الأهداف لصالح الإخوان، فالرئيس دائمًا على حق، وحين ينتقده رئيس تحرير الدستور، فقد أصبح ذلك إهانة للرئيس، ويقوم محامٍ من الإخوان بترهيب رئيس التحرير، ويتم حبسه احتياطيًا، ثم يتدخل الرئيس، ويقوم بدور المشرِّع والبطل في آنٍ واحد، فيمنع الحبس الاحتياطي في قضايا النشر، ويخرج الصحفي وقد وعى الدرس، فقد كانت مجرد تذكَرة، لكنه مشهد تقليدي قديم، قد عفا عليه الزمن، ولم يعد الكثير يعوِّل عليه، فقد وعى الجميع الرسالة، نستطيع تغيير الواقع بأيدينا.

الفريق الثاني يرأسه أعداء الرئيس، وهو ضد الإخوان قلبًا وقالبًا، وضد الرئيس مهما فعل، ويقوم بفحص وتمحيص كل ما يقوم به الرئيس، ويحرز أهدافًا في الإخوان، ويظل رصيد مصر صفرًا.

وفريق حائر بين الاثنين، لا يعرف.. ماذا يفعل؟ فبعض ما يقال هنا منطقي، والبعض الآخر لا علاقة له بالفِهم أو المنطق، فتارةً يقول: "الرئيس على حق" ثم يرى تناقضات الرئيس فينصرف عنه، ثم يضايقه مبالغات أعداء الرئيس، فيقرر أنْ يشاهد سهرة التليفزيون ـ وكفى المؤمنين شر القتال ـ لكنه يستيقظ كل يومٍ، وهو أشد حيرة من اليوم السابق، ومازال لا يعرف إنْ كان مع الرئيس أم ضد الرئيس.

وثمَّة فريق آخر، وهو ينتمي لقبيلة "إياكش تولع" فهو غير منتمٍ لأي فصيلٍ، ويتمنى فقط أنْ تهدأ الأمور، وتعود لما كانت عليه قبل الثورة "وبلاش وجع دماغ".

وفريق آخر على وعي بالقضية، ويرى أنَّ مصلحة مصر في عدم الشخصنة، والسعي الدائم الحثيث تجاه الأفضل عن طريق الأخذ بأسباب التقدُّم التي وعاها قبلنا الكثيرون، ويعرف أنَّ العلم والحريات هما البابان الوحيدان نحو التقدُّم، فهل نستمع له أم سيظل دومًا صوت الخناقة بين أنصار الرئيس وأعدائه هو الأعلى؟.

والسؤال الآن: هل يعي السيد الرئيس الموقف، فيعتمد على أفضل اللاعبين في المشهد المصري، أم يظل متمسكًا بالفريق الأقرب إلى القلب؟

(٢٢)

فكر الغنائم

يقول ستيفان شيجال: "إنْ آجلًا أم عاجلًا سوف ينسى الرجل ذو الوجهين أيهما وجهه الحقيقي".

لكنَّ الكارثة الكبرى هي ألَّا يدرك الشعب ما هو الوجه الحقيقي لرأس الدولة، فالدولة المصرية إبان عهد الرئيس السابق تحدثتْ عن الديمقراطية وسط انتخاباتٍ مزورة، وتعليمٍ رديء، ومستوى متدنٍ للخدمات الصحية، وانتشار الرشوة، ثم جاءتْ وعود الرئيس الحالي بإقامة نهضة! وما نراه اليوم لا يبشر بأي نهضة.

ونتأمل بدقة فكرة النهضة، نجد أنها بالأساس مرتبطة بفكرة النهوض من حالة السُّبات أو السكون، ونجد أنَّ مشروع النهضة المزعوم ليس له معالم واضحة، فما هو إلَّا بعض الجمل الإنشائية التي تصلح فقط لموضوع تعبير في فصل لمدرسة ابتدائية لمعلّم لغة عربية ضعيف المستوى.

وحين قامتْ النهضة في أوروبا، قامتْ على أسس التفكير العلمي، وكانت نهضة في كل مناحي الحياة فيما يتصل بالعلم والمعرفة والفنون، والتفكير العلمي يعتمد على المنطق والمعرفة والبحث العلمي كأسسٍ للتقدُّم، وما نراه اليوم في الواقع المصري الحالي، وما يسمى مشروع النهضة ما هو إلَّا وهمٌّ مؤسس على الفكر

الخطابي والحملات الشعبية، فالقمامة في العالم كله ليستْ مسئولية الشعب، وتلك هي حلول لا ترقى إلى مستوى الدولة، قد يقوم بذلك شيخ حارة أو مسئول في حي، وإنما الدول التي تؤسس على فكرٍ استراتيجي، يوجد شيء يسمى إدارة النفايات والقمامة، ويستفيد العالم من القمامة في عملية إعادة التدوير، وهي صناعة كبيرة، وتدر البلايين على الحكومات، ولو سافرتَ لأقرب دولة أوروبية، لوجدتَ مقالب القمامة التي في الشارع مقسمة إلى مقالب مخصصة للمعادن، وأخرى لبقايا الطعام، ومن ثمَّ يسهل تصنيفها والاستفادة منها، لكنَّ المأساة في مصر أننا نحاول دائمًا إيجاد حلول آنية لا تؤتي ثمارها، وهي حلول هشة لن تفيد أو تنفع، هي حلول تبدو جميلة لكنها تفتقر إلى المنطق والتأثير الدائم.

النهضة أساسًا تنطلق من مسلَّمات غير متوفرة في ظل المناخ الحالي، في ظل المناخ الدهشوري، فأزمة دهشور أزمة ثقافية، فثقافة القبيلة تتحكم في تصرفاتنا، فوجود مشكلة بين أي فردين أمر حتمي، وعدم القدرة على التواصل أمر واضح داخل الثقافة المصرية، أما أنْ تتحول تلك الخناقة إلى خناقة بين المسيحيين والمسلمين، فلابد أنَّ لدينا خللًا واضحًا في فِهمنا للأمور، هذا الخلل الثقافي، هذا الفكر القبلي، هو ما يجب اقتلاعه من الجذور، فكرة أنا وأخويا على ابن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب، تهدم فكرة العدالة وسيادة القانون، وهذا فكر متغلغل في جذور مجتمعٍ يعانى من شيزوفرينيا متأصلة ومتجذرة، ولا أظن أننا سوف نستطيع فعل

أي شيء في ظل مناخٍ سياسي، يؤسس لفكر يبعث على اقتسام الغنائم، وليس بناء الوطن.

كيف يُقتلع من الجذور؟ فكرة المواطنة هي الملجأ الوحيد، وتترسخ فكرة المواطنة في العقل والقلب حين يصبح كل المواطنين سواء، ونظرة بسيطة كيف يؤمن عليكَ صحيًا في بلدٍ مثل فرنسا، فكل المواطنين يستمتعون بنفس نظام التأمين الصحي مهما اختلف الدخل، توجد أزمة مواطنة حقيقية في مصر على مستوى المسيحي والمسلّم والبهائي، وعلى مستوى الغني والفقير والمعدم، مستوى التعليم المتدني في المدارس والجامعات المصرية مقارنةً بالمدارس والجامعات الخاصة.. ألم تحن الساعة حتى يستمتع جميع المواطنين بنفس المزايا والحقوق؟! سؤال لن نستطيع الإجابة عنه.

(٢٣)

بس مركِّب ذقن!

أنْ تترك بصمة في تلك الحياة، هذا هو التحدي الحقيقي، وأنْ تترك بصمة كسياسي، يبدو وكأنه تحدي أكثر صعوبة.

التاريخ العالمي والمصري به الكثير من الأسماء، التي لن تنمحي مهما حاول البعض طمسها أو حتى محوها، لذا نجد أنَّ أصحاب التفكير النقدي يستطيعون تغيير مجرى التاريخ، والتفكير النقدي يصاحب فكرة الإبداع في كافة المراحل من القدرة على الملاحظة إلى النقد والتحليل، ومن ثمَّ التغيير.

يعتمد التفكير النقدي بالأساس على القدرة على فِهم الواقع، والوعي بمعطياته، ومن ثمَّ القدرة على نقده مستندًا على الحُرِّية المطلقة كعمودٍ أساسي للمجتمع الحديث، والحُرِّية في التفكير هي المقوِّم الأساسي لعمل التغيير المنشود.

وفي محاولة لفِهم ما يدور حولكَ في الواقع المصري الحالي، فلن تجد أيَّة معطيات تساند التفكير أساسًا، فالقرارات المتوالية لا توحي بوجود إطار فكري واضح نستند إليه، فنستطيع التنبؤ بالسياسات القادمة.

عصر النهضة في أوروبا، بدأ حين تقدمتْ العلوم والفنون، ثم تلى ذلك التغيير السياسي، أما في مصر فالوضع معكوس تمامًا، فما تلى

أحداث ٢٥يناير، وتغيير النظام السابق حدث قبل أي تقدُّمٍ في العلوم والفنون والتعليم والثقافة، وهذه هي الكارثة السياسية التي أظهرتْ فصائل الإسلام السياسي المفلسة فكريًا، فكل ما يقدِّمه لنا المنتمون للإسلام السياسي لا يقدِّم ولا يؤخر، ولا يعد كونه أكثر من خطبٍ عصماء في الفكر الديني، لا تنتمي للفكر السياسي من قريبٍ أو بعيد.

المنحى الأخلاقي الذي يتبناه هذا التيار، لن يصل بنا إلى شيءٍ سوى مزيدٍ من الخطب عن غياب الضمير، وضرورة العودة للأخلاق، ومن ثمَّ سوف يتغير كل شيءٍ، ونصبح في أفضل حال، وهذا غير منطقي.

وخطورة ذلك الفكر على المجتمع المصري كارثية؛ لأنه ببساطة يبتعد عن أهم مبادئ التفكير النقدي، وهي المكاشفة، وفِهم الواقع كما هو، ورد كل مشكلة إلى أسبابها الواقعية، ومن ثمَّ نستطيع أنْ نرى مشاكلنا بوضوح دون وجود إجابات جاهزة، مثل: الأخلاق هي الحل، وحين نرى المشاكل بوضوح، سوف نستطيع استخدام المنهج النقدي، وتحليل المشاكل إلى مكوناتها الأولية حتى نستطيع إيجاد حل عملي لها.

المثال الواضح الجلي، هو حال التعليم المصري، الحديث القائم عنه هو دائمًا وأبدًا حديث عبثي بدرجة امتياز، المشكلة ليستْ الدروس الخصوصية أو أجر المعلِّم، تلك مجرد نتائج لطريقة تفكير عقيمة.

التعليم صنع نهضة كوريا الجنوبية، ولن يصنع نهضتنا تلك الخطب الجوفاء عن قدسية رسالة المعلّم.

نحتاج أولًا أنْ ندرك أنَّ التعليم أحد أركان النهضة، ومكوناته واضحة لأصحاب التفكير النقدي، لابد من البنية التحتية لأي مشروعٍ تعليمي، وهذا يتمثل في مباني المدرسة، الفصل الدراسي المجهز تكنولوجيًا، الملاعب، حجرة الموسيقى والرسم ومعمل العلوم الحديث، مع وجود مناهج حديثة عملية مرتبطة بالواقع وسوق العمل، ومدرسين مؤهلين لديهم رواتب كافية ومحفّزة.

التدريس مهنة تحتاج إلى معرفة ومهارات وقدرة على التواصل، وبالتالي لن يستطيع القيام بها أفراد ممزقة أوصالهم، تهدر طاقتهم في الدروس الخصوصية.

أهم ما يميز التفكير النقدي هو الواقعية في الطرح، والبعد عن الخطابة، إذ أنها الطريقة الأمثل لحل المشاكل الآنية والمستقبلية.. فهل يتعامل الرئيس وشركاه مع الملفات المصرية المصيرية بواقعية؟ أم سنظل نخاطب أنفسنا، نتكلّم كثيرًا ونعمل قليلًا، نقول ما لا نفعل، ونفعل ما لا نقول، لو فقط تابعتَ اختراع الرئاسة المسمى ديوان المظالم، وحاولتَ التوصل لحل مشكلة ما عن طريقه، سوف تدرك يقينًا أنَّ مَنْ في الحكم الآن هو مبارك بس مركّب دقن.

(٢٤)

السياسي المبدع

يشهد التاريخ عبر العصورعلى كثيرٍ من السياسيين، البعض منهم مُلهم، والبعض الآخر مبدع، ويبقى لدينا كثير من المفلسين والمفسدين، ومازال العالم الثالث يعاني على مر العصور من فشل القيادة، وهروب المواهب إلى حيث تنمو وتبدع في عالمٍ لا يعرف للخطابة والفهلوة مكانًا، في عالمٍ يعمل كثيرًا، يتكلَّم قليلًا، فتكون النتيجة بناءً لدولة تنجح، وتكون في حالة سعي دائم للنجاح.

السياسي المبدع ليس بالضرورة خطيبًا مفوَّهًا، أو متحدثًا بارعًا، لكنه بالأساس يمتلك معرفةً، ووعيًا بالواقع، وقدرة ورؤية مستقبلية.

السياسي المبدع هو رجل واقعي، يعي الواقع تمامًا بكل مفرداته، يتفهم الثقافة التي يعيش فيها، ويعي مفرداتها وتفاصيلها الدقيقة، فهو ليس فارسًا آتيًا على حصانٍ لإنقاذ الأمة، بل هو يخرج من وسط الأمة مدركًا مشاكل الواقع، ومتحديًا صعاب مجابهة المستقبل.

السياسي المبدع يدرك حجم القوة الحقيقية للجبهة التي يمثِّلها، ويحاول إيجاد أفضل الحلول الممكنة، ليستْ القضية أنْ يستطيع السياسي أنْ يَعِدَ بالكثير مما لا يملُك، وقد كان مرسي أول مَنْ وقع في فخ الوعود، فوعد كثيرًا وخاب أمل الكثيرين فيه.

إدراك حجم القوة هو أهم ما يميز السياسي، ومن ثمَّ يستطيع أنْ يقود فريقه وبلاده للممكن، وليس للوهم الجميل، وغالبًا ما يصدِّق الكسالى والحالمون الوهم الجميل، فمن السهل أنْ يستمتع الكثير ببعض الكلمات الرنانة، ثم تتبخر الوعود، وينفض الموكب عن زعيمٍ وهمي، يتكلَّم حين يكون عليه أنْ يعمل.

في العمل السياسي يبقى فقط مَنْ يسيطر على الواقع ويتفهمه، ويتبخر كل مَنْ يتحايل على الواقع، ويتجاهل مشاكله الملحة، ومن الواضح أنَّ الصورة في مصر مازالتْ ضبابية، والناس في حيرة، وسئموا من تناقضات السياسيين وعجزهم عن الإنجاز، ويبقى المواطن البسيط هو الوحيد المهموم، والراغب في الاستقرار الاقتصادي والأمني والنفسي، ولكنه يبدو وكأنَّ الأمر حتمي ولا فِكاك منه، وسنظل نعاني من سياسيين ينزجون تحت وهمٍّ أنهم أفضل مَنْ يتحدث في السياسة، وكأنَّ السياسة هي فن الكلام، وكأنهم لا يعلمون أنَّ التاريخ السياسي فقط يذكر مَنْ غيروا الواقع، لكنه أبدًا لن يهتم بمَنْ تحدثوا عن الواقع، فالحديث عن الواقع لا يغيره، فقط نستطيع تغيير الواقع حين نستوعبه بكل معطياته، فهل آن الأوان أم مازلنا نغني للوطن في حين يغيِّر الآخرون العالم من حولنا؟.



كلمة أخيرة

أحببتُ كل ما كتبتُ في هذا العمل، ودائمًا وأبدًا سوف يظل دفاعي عن الحُرِّية كفكرة وممارسة هو هدفي الأول، الحُرِّية هي حجر الأساس في بناء مجتمعٍ يسعى نحو الإبداع والتغيير، مجتمعٍ جادٍ في علاقته بالحياة، ومهما حاول أعداء الحُرِّية قمع وحجب وفرض ما لا يقبله الفرد، سوف يظل حق الإنسان الأصيل في كافة الحريات، وسوف تنتصر دائمًا الحُرِّية، فلا قيمة لشيءٍ يفعله الإنسان، وهو مجبر مقهور، سوف يظل حق الاختيار وتقرير المصير، هو المقدس الأساسي الذي يقدِّس باقي مناحي ومسالك تلك الحياة.

والحُرِّية قرار يتبعه الكثير من المسئوليات، فحين تقرِّر القيام بأي دورٍ في تلك الحياة فأنتَ تقرِّر أنْ تكون مسئولًا.

شريف رزق

المؤلف في سطور

- كاتب وحقوقي وإعلامي مصري
- عضو مجلس أمناء المبادرة المتحدة للأديان عن شمال إفريقيا والشرق الأوسط
- كتب العديد من المقالات بصحيفتي:

المصري اليوم - Egypt Independent

- يقوم بالتحليل السياسي في Nile T.V

- صدر له :

- في البدء كانت الحرية : مقالات.

شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٤

- البريد الإلكتروني : sherifaq@gmail.com

الفهرس

▪ الفصل الثاني : تناقضات من واقع الحياة

▪ الفصل الرابع : كلام في السياسة



(+2) 01288890065 / (+2) 02 27270004

www.shams-group.net